

نبيل سليمان



الطبعة الثالثة

# السجن

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>



أبو عبدو البغل

نبيل سليمان

# السَّجَن

رواية

<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>



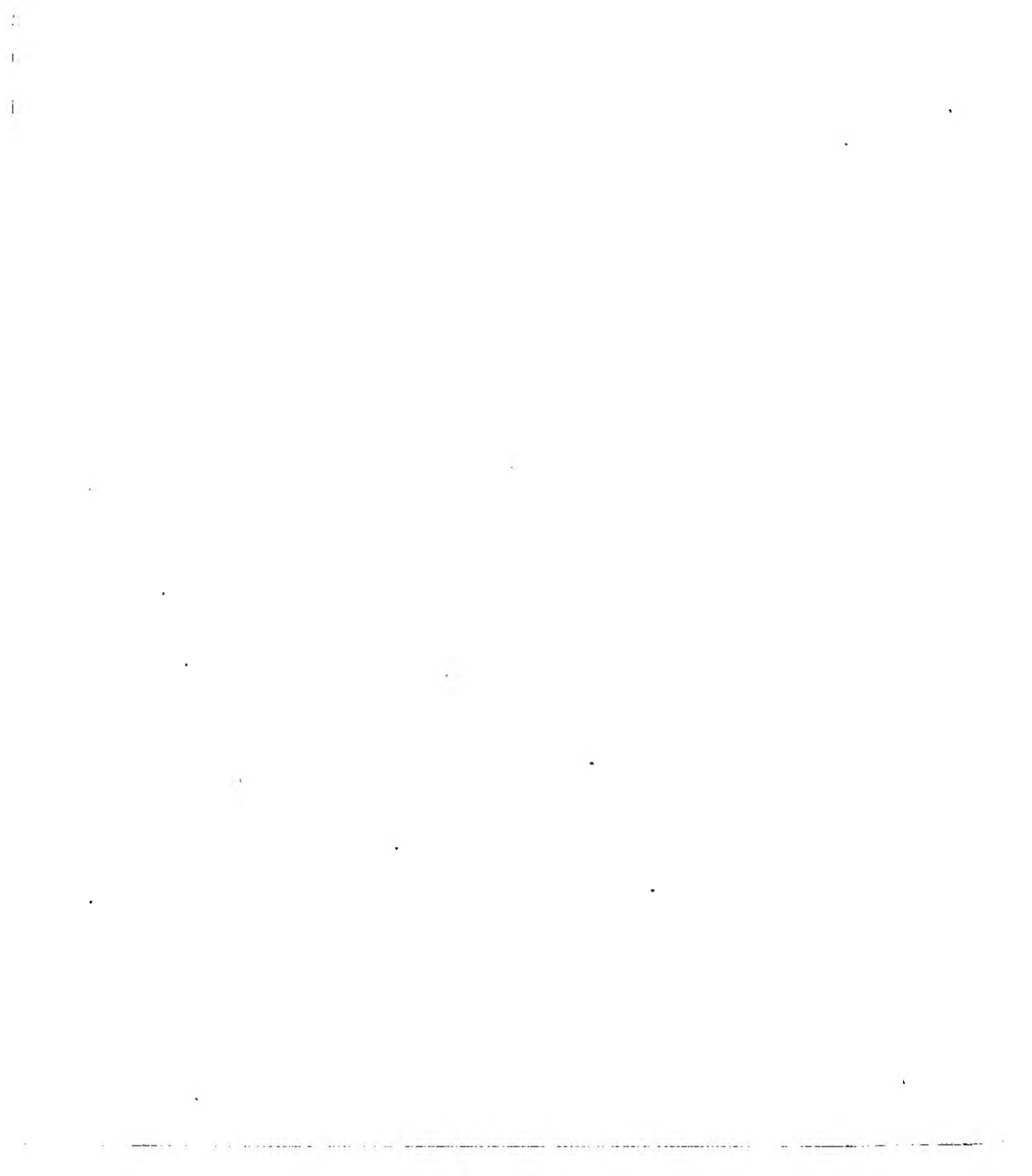
أبو عبدو البغل

دار الفارابي - بيروت

١٩٨٢

الغلاف للفنان طلال معلا  
الطبعة الاولى - ١٩٧٢  
الطبعة الثانية - ١٩٧٩  
الطبعة الثالثة - ١٩٨٢  
حقوق الطبع محفوظة

## الفصل الأول



يا جبل المرام ..  
إليك انشدت ابصارنا بأمراس المستقبل والعناد ..  
ولقد ربيضت منذ أول التاريخ هنا ،  
ولم تكن صما عن نداءاتك على الدوام ..  
كانت محل العراء الذي تشكو اليوم  
مرايع من كل لون ، وهناءات بلا حدود ...  
يا جبل المرام :  
تنفرز اليوم في انحائك اظافر وحشية ..  
سدت الطريق إلى قمتك ..  
نتنت الأرض هنا ..  
استنقع الماء الراكد في أقدم مدن العالم ..  
محرم ان نلزم القرارة زمنا آخر ..  
ان الاوكار تطفّر من سفح المدينة ،  
ومن سهلها ..

ولم يبق الا أن نفاذر الى فوق ..

اجل ، وما أن يكون الصعود ،

حتى تنتزع الازفجار ،

وتنمهد الدروب ،

وتورد الايام ...

وتورد الايام ...

الاغنية ملء كيانه .. هزته الرعشة عندما لمعت في خاطره

صورة الايام الموردة ، ورفع عينيه الى الجبل الذي يسد منافذ

الافق الشرقي ..

جبل المرام ...!

متى سماه كذلك ؟ العاشق الغر .. أي هوى هذا الذي

تملكه منذ أن ودع طفولته المرة ..؟ وصافح بصره الاوكرار المنتشرة

في خاصرة الجبل اليسرى .. هل عشق المنحوسون فيها القمة

الحبيبة قبلي ..؟ وعرج على الخاصرة اليمنى ، مرغما ، كان قوة

مجهولة تشده .. أنه السجن

وزفر مرتين ..

كان الهم في الاولى ...

وكان العزم في الثانية ... ثم باعد بين قدميه وتأبط كفيه،

مصمما أن يديم هذه الوقفة ، طيلة دقائق الانتظار المتبقية . الساعة

توشك ان تشير الى الساعة . ادرك ذلك بحدسه الذي اكتسب

دقة كبيرة في التوقيت ، منذ ان بدأ قبل خمسة شهور الرحلة .

كان منزويا في وقفته وانتظاره خلف ركام عال من مواد البناء ،

والظلمة تغلفه . وقد كان يحس دائما أنه مدين لهذه البقعة من

السفح .. ان من الصعب حقا ان تقع على ركن أمين في مثل هذه

المدينة .. الاضواء الساطعة ليست بعيدة من هنا .. أمتار قليلة

خلف هذا الركام ، ويرتمي في قلب الساحة .. كيف يغدو الامر

بعد ان يقوم البناء في هذه القطعة ، ويشعلها النور . . ؟ اكتب ، اذ  
عبر هذا الخاطر صدره . . لكنه ارخى من كتفيه المتعبين ضحكة  
ساخرة . . هل سأقضي العمر ابحث عن الاركان الامينة في هذا  
السفح ؟ لن يتحول هذا الركاب عمرانا وانوارا قبل سنين ، فهل  
ستمند الرحلة حتى تلك الايام . . ؟ وافاق على صوت غير بعيد ،  
فأيقن ان عابدا قادم . لا شك انه تأخر هذه المرة اكثر من كل ما  
فعل في الماضي . . بيد انه جاء على كل حال . . والتفت ناحية  
الصوت . . حاول بصره ان يثقب العتمة . لكنه ارتد مخيبا وعندما  
استوى راسه ثانية ، سمع دقة قلبه ، فارتعش ، وانشد بفتة عكس  
الناحية التي يتطلع فيها . . لم ير شيئا . . تزعزت وقفته الواثقة ،  
وتراجع خطوة ، وانصت ، فلم يقع على غير الصمت . . حتى الصوت  
الاول اختفى . . ايكون الوهم قد رسم له . . ؟ عابد لا يشعل مصباح  
سيارته عندما يلج هذا الدرب الوعر . لقد قال مرارا انه يود لو  
ان المحرك يخرس حين يكونان معا . . وحاول وهب ان يمتلك  
هدوءه ويسترد الثقة المفقودة . . . كم لعبت بالاعصاب الاوهام  
والتوجسات والظلمة والمواعيد . . . في المرة الاولى كاد ان يبرح  
قبل الموعد . . كانت ريبته كبيرة . . حتى الاحجار واكياس الاسمنت  
وكومات الاخشاب التي تستره ارتاب فيها يومذاك . . عابد نفسه  
لم يسلم من الشكوك . . وقد آلى ان يدرس قبل اللقاء الثاني هذه  
القطعة شبرا شبرا . خلفه - استدأر وتملى - حفرة كبيرة . .  
واسوار المنازل مرتفعة . . الى جانبه الدرب مفتوحة وسالكة ،  
ولكن يمينه - التفت بحدة - يفضي الى قلب المدينة . . يفضي الى  
الساحة المفتوحة . . وتسمر راسه صوب اليمين . . الدرب  
موصدة هذه المرة . . كيف . . لا ريب في ذلك . . لقد رأى ملء  
عينيه سيارة تسد عرضه . . ليست هذه سيارة عابد . . عابد لا  
يأتي من هنا . . وتجمد . . ايكون وهما أيضا . لا . . حاول ان



يتحرك فمعجز . لم يلحن قلقة ورييته . ورغم أن صوتا قد توضح في الطرف المقابل ، في اللحظة نفسها ، فقد تصلب فترة طويلة ، وعندما هم ان يلتفت ، كانت سيارة عابد تتسلل موشكة ان توازيه . . فاطلق نفسا . وجدف . ثم مد قدمه ليلاقى السيارة ، لكن نورا ساطعا انصب فوقه بفتة ، وغمر المكان بكامله ، فرأى عابد داخل السيارة محتضنا المقود : لا ينظر إليه ، ورأى كومات التراب المنتشرة ، والحصى والاكياس ، وقضبان الحديد . . وفي الطرف الآخر رأى سيارة تقطع عرض الدرب . . لم يبحث عن مصدر النور . . ايقن أنه قد وقع في الفخ . لم تسلم الجرة هذه المرة . بيد ان حضورا فجائيا امتلكه . . احس أن شيئا داخل جمجمته يتوقد . قاد قدميه الى موازة السيارة ، همس دون ان يحرف عينيه .

— تدبر امرك وأتركني . . لقد وقعنا . .  
واوشك ان يتابع ، عندما استوقفه نداء حاد من داخل السيارة .

— لا تتحرك . .

لم يكن صوت عابد . . انلجم . . ولم يفكر في ان يستدير . . سمع باب السيارة يفتح ، ثم يفلق ، ثم سمع صوتا يأمره برفع يديه ، فاستجاب بعد لحظة ، وهربت من رأسه كل المخططات ، ورأى شابا طويلا ، نحيفا ، يأتيه من الخلف شاهرا مسدسه ، هو وظله ، بينما تقدم منه ثلاثة آخرون ، شاهرين اسلحتهم أيضا ، ثم سمع صوت الكليجة فوق معصميه . .

— ٢ —

زّج وهب بفضاظة في القسم الخلفي من سيارة لا ندروفر صغيرة ، بينما جلس الشاب الذي كان يصدر الاوامر في القسم

الامامي . اما الثلاثة الآخرون فقد احاطوا بالغنيمة الجديدة من كل جانب . خيم الصمت لحظة ، سمع بعدها وهب هدير سيارة عابده ، ثم اختلط عليه بهدير سيارة اخرى .. كان رأسه مشدودا الى اسفل ، ولكنه مع ذلك كان يبصر ما حوله جيدا . واحس بالاسف لانه لم يمتلك هذه الرؤية كلها قبل قليل ..

— انت وهب اذن؟ عظيم ايها الرفيق .. انت تعرفنا بالطبع؟ .  
جاء الصوت ، من ناحية الشاب ، مشحونا بالاستفزاز والسخرية ، فاذن للفيظ ان يتكلم في نواحي الصدر ، بتسارع حاد .. ( كان هذا الوقع مع عابده فهل تركه وحيدا ؟ اوليس معه الآن من يقول له هذا الكلام الرائق .. )  
اردف الشاب .

— أنا ..

فقاطعه الرجل الذي يجاوره في المقعد .

— النقيب هاشم ..

صوت الجارخشن . تريت وهب في ايماءة الرأس . ضحك النقيب ..

— معرفة سابقة ..؟ هه ..؟

أجل ، لقد عرفتك يا سيادة النقيب .. وهل فينا من يجهلك .. صيتك ذائع في كل خلية .. وليس فينا من لم ير وجهك او يطالع صورتك .. لقد وصلت اليك اخيرا .. رائع .  
لم يتح لوهب ان يسترسل .. قال النقيب وهو ينظر الى الامام :

— لماذا ورطت المسكين ؟ .. لماذا تفعلون دائما ..؟ الناس في بيوتها آمنة مطمئنة حتى تأتي سوستكم فتخرب الاول والآخر .. قرر وهب الا يستمع ، والتفت خلفه باحثا عن المسكين المورط ، لكنه وقع على سيارة لاندروفر اخرى .. اتراها كانت تترصد في

الزاوية الثانية ..؟ حاول أن يتمعن في رتل السيارات الذي انتظموا فيه ، منذ دخلوا الساحة ، لكن الرجل المقابل لكزه منتهرا:

— سيادة النقيب يكلمك .. اطرش ...؟

فوجيء باللكمة .. لم يتألم ، ولكنه صبت عينيه فوق الرجل، الذي أردف مشيرا صوب النقيب ، كأن شيئا لم يكن .

— هناك . انظر هناك ...

انصاع وهو يزداد اضطرابا واثارة ... ثم وجد انه على النحو الجديد ، يستطيع أن يتملى من الشارع والسيارات والدكاكين والناس بصورة افضل .. وفكر في أن سيارة عابدة قد تكون هناك .. حيث لا يستطيع بصره ان يدرکها .. بيد انه لم يشك في أنها آتية الى حيث تذهب هذه السيارة به ..

— أرجو أن تكون عاقلا مثل رفيقك ..

سمع النقيب يخاطبه .. اجل .. استمر في تلصصه عبر زجاج السيارة ، الامامي ، خمسة شهور من الحرمان والتخفي .. استشعر غصة حادة في قلبه ، لانه التقى بالدنيا ، بعد انتظار مر عكس ما كان يرسم .. بلغ ريقه واوشك أن يتعزى ، مغريا ناظريه بالتهم كل ما تقعان عليه .. أنه يبصر جيدا .. حتى السيقان التي تهرق تحت اضواء النيون ، والاعلانات الكهربائية ترسم له حارة آسرة . ويبدو ان استغراقه طال، فقد ألقت صوبه النقيب محتدا وصرخ به:

— ألا ترد يا كلب ؟

وقبل ان يفیق من المفاجأة ، سمع تحقيرا اقذر من الذين يحيطون به ، ولح تهديدا بالضرب ، ثم رأى النقيب اخيرا يوصي بالصمت ، والانتظار ، فأحس بالامتهان ، وأقلب غيظه قهرا ، وود لو أنه كان يقدر ان يخرس هؤلاء ، لفعل آذن ، ثم نمت نغمته ، لتصفع كل الذين يتسببون بالقهر والامتهان ..

— انت مصمم على ان تكون وهبا فقط .. ؟  
سأله النقيب ، وقهقه ثم اردف :  
— فكر جيدا ايها المغفل .. لقد فقدت ذاكرتك سريعا .. ماذا  
رايت بعد حتى تنسى شخصيتك ؟  
وكاد اللبس ان يأخذ وهب حقا .. « انت لست وهب ..  
انت أدوار صاحب الصيت الذائع .. أنت المسؤول عن تنظيم هذا  
البلد كاملا . » يلزم ان اشكرك يا سيدي النقيب .. لقد اعليت  
شأني ايها أعلاء .. لكنني لست أدوار ، ولست المسؤول .  
انني وهب ، العضو العادي الذي تعرف لا بد ، حقا ..  
احتقن وجه النقيب ، وكان عناد المعتقل الجديد يفيظه ،  
ويقتل الوقت هباء .  
— متى دخلت البلاد .. ؟  
— لم ابرحها من قبل ..  
— ومن كان في لبنان يرسل المال والمناشير يا دجال ؟  
لقد اراد حقا أن يذهب الى لبنان . وفي لحظات أخرى  
(نادرة) تمنى ان يذهب الى اي مكان .. اراد ان يقفز فقط فوق  
خط الحدود هاربا من هذا الجحيم ..  
— تستطيع أن تتأكد .. هذا عنوان ..  
لم يتح له أن يكمل .. النقيب تزق .. جنونه وشيك خلاف  
ما أوجي في السيارة ..  
— عنوانك عندي ايها الابله .. هل تحسب نفسك ذكيا حقا ؟  
طمس التزوير وهبا .. ينبغي عليك ان تتخلى عن شخصيتك  
الحقيقية لترضي الضابط المحقق .. لا بأس أن تنزع جلدك حتى  
يصدقوك .. النقيب في عجلة من امره .. انه يريد أن يفرغ منك

سريعا .. انت غنيمة فوق العادة . يريد ان يحقق بك سبقا ، وربما  
رتبة .. وربما .. لقد امتد الصمت بك حتى بلغ السيل الزبي ..  
ونها هو يقف ضاربا زجاج مكتبه بكلتا قبضتيه ، فيتحرك لوقفتيه  
الرجال الثلاثة ، الذين كانوا متوزعين في أنحاء متفرقة من الغرفة  
الكابية . حار وهب .. هل ينهض هو ايضا ؟ ام يستمر مكوما فوق  
المقعد الخشبي قرب المكتب ؟ تذكر في ومضة ، آخر ما تعلمه عن  
المحققين « قبضت على رئيس المنظمة يا سادتي .. انتزعت اعترافه  
ولسانه فهاكم » .

خاطبت عيناه النقيب وهو يحدق فيه « سيكون من العسير ان  
تقول لهم ذلك » . وفي ذات اللحظة اخترقت ادناه صيحة :  
- يقف يا وفد ..

فشب وتعثر بالمقعد ، وخطف ناظريه بين النقيب الذي راح  
يتقدم نحوه ببطء ، وبين الرجال الثلاثة الذين اخذوا يتقاربون ،  
وهم يتقدمون صوبه ايضا . هم في ان يتراجع ، لكن الاباء اوقف  
قدمه في اللحظة التي اوشكت ان تتحرك فيها .. ثم تذكر وهو  
يراهم امامه جميعا ان الجدار لن يسمح له بالتراجع . لقد كان  
الجدار لصق ظهره . اعيدوا له ذاكرته ( خاطب النقيب رجاله ) ..  
كنت اود ان اجنبك يا منحوس . ( تابع مخاطبا وهب ) .

انزعه اضخمهم جثة من الجدار ، وقذف به فني وسط  
الغرفة .. لم يرتهم .. لقد كانت دفعة هائلة .. عجب لذلك .. الا  
ان قبضة اخرى ، اكثر هولا ، لم تفسح له .. هرست خده الايمن  
هرسا .. واحس ان تشويها فظيما لحق بسننحته ، حاول ان يتلمس  
الناحية التي لا تزال سليمة ، فسبقته اليها خبطة ثالثة .. ( هذا  
طعمكم جميعا ) خاطبتهم عيناه اللتان لم تكادا ان تقعا على النقيب -  
كان يبحث عنه بجنون ، لغير ما سبب معروف - حتى كان قد  
انطرح فوق البلاط على قفاه ، وقد احس ان شيئا في جوفه يتلوى

ثم يتقطع .. اراد ان يحمي بطنه بكفيه لكن الرجل الضخم ، اولهم ،  
شدّه من شعره ، واوقفه سويا ، فأيقن ان الدم قد تفجر من جلدة  
راسه ، ثم شرع الاخران يهويان بمطارقهما فوق فكيه ، وصدغيه ،  
بينما كان يحول شعره المشدود دون رغبته التي قاربت البكاء ، في  
السقوط . تكاثفت الرؤى امام عينيه ، فابصر النقيب جالسا خلف  
مكتبه ، يتبسم ، ثم يضحك ، ثم رآه قبالبته تماما ، وعجب من انه  
تدلى عقب ذلك مباشرة من المصباح الكهربائي الشحيح الذي يهتز  
فوق راسه ، وسط الغرفة ، وازداد عجبه من ان النقيب لا يسقط  
رغم هذه الوضعية اللا معقولة .. ثم اغمض عينيه وأذنيه ، وابتعد  
عنهم ، حتى وصل الى قمة عالية ، قبلها وأشرف منها على جلاديه ،  
وهم يتعاركون بوحشية ، فرثى لهم ، وللوهدة التي يتردون فيها ،  
وادهشه ان الارض تخسف بهم ، بينما تعلو به القمة وتناى ..  
اتراها كانت قمة جبل المرام ..؟ وامتد به السؤال دهرا ، قبل ان  
يفتح جفنيه على صوت النقيب يأمر :

— انهضوه وهاتوه ..

وقبل ان تتحسن آليته جيدا طعم المقعد ، وتهشّ ، سمع  
النقيب يخاطبه :

— ها أنت ترى انك لم تتحمل وجبة واحدة .. جسمك غض  
على الرغم من سنيك وشبابك .. تعقل يا مجنون .. ماذا يجديك  
ان تنكر .. نحن نعرف جيدا من أنت .. نعرف دخولك الحدود .  
ونعرف من دبجّ ودبر المناشير اللعينة .. لا تظنّ انك اتيت شيئا  
فاتنا .. في الخميس الماضي ، وفي الساعة السابعة ايضا — أخذ  
يحتد — نفسها اين كنت ؟ ألم تركب سيارة عابد حتى الجسر  
الجديد ؟ وقبل ذلك بأسبوع ايضا ماذا أعطيته على طريق المطار ؟  
تذكر وهب بصعوبة ، ومن خلال الالام الكثيف ، ان النقيب  
قال له هذا الكلام او ما يماثله منذ فترة غير بعيدة .. وتذكر انه

فهم حينئذ سبب وقوعه في الفخ ، وعرف الرفيق عابد كما لم يعرفه من قبل .. سأله النقيب :

— الا تزال مصرا على أنك وهب فقط ؟

ثقل الضيق على صدره .. هل يجهل الانسان هويته بعد اربع وعشرين سنة ؟ لماذا كل هذا التزوير — سأل سقف الغرفة — لست ادوار يا حضرة النقيب .. بماذا تريد ان اقسم لك .. ابي عفيف المختار وامي نجمة وقريتي على دقائق في سيارتك من هنا .. قذف وهب بهذا كله ، دفعة واحدة ، وكان يحس ان كلامه يخرج ممزوجا بنثار بصاقه المشوب بخيوط باهتة الحمرة ؛ كما ان حركة فكيه سببت له وجعا ، اسرع في اسكاته .. لكن النقيب اصر .. لا شك أنك مخطيء يا وهب .. النقيب ادري بك من ابيك وامك .. أنه ادري بك منك .. ولقد آن لصبره ان يفرغ حقا .. فعنادك مغيط .. بل مهين ..

— حيوان .. لا ينفع معك الكلام .. الا تعرفون ماذا ينفعه ( خاطب عباصره ) خذوه الى الصالون الداخلي .. نهض وحده .. قبل ان يصلوا فعل .. ونوى ان يسير .. ولو كان يدري ان يقع الصالون الداخلي لهرع اليه .. لكن اخلاصه وطواعيته لم تمنعا عنه اذى الطريق .. خرج من الغرفة ، وعبر ممرا ضيقا ، مع الركلات التي كانت تتقاذفه بين الجدارين .. كانت الظلمة تشتد كلما اوغلوا ، حتى اذا ولجوا باب الصالون باغته نور باهر .. وتعجب من فساحة المكان .. كما راقت له الجدران الزردانة بما يجهل .. طرحوه أرضا ، وداعب احدهم راسه بطرف حذائه ، غير متلطف ، ثم دحرج آخر من الزاوية دولابا اوقفه جسم وهب ، الذي صار يحس بالانقصال شيئا فشيئا .. اراد ان يتفرج عليهم .. ادخلوا رجليه في الدولاب ، ثم

كوروه جيدا ، وحشروا رأسه .. حسد نفسه لانه نحيف .. لا ريب ان ( مسعد ) عانى أكثر بسبب سمته .. اكتشف ان خاصية المرونة فيه عالية .. صار يتدحرج الآن مع الدولار .. اضحكته اللعبة ، كما أدمت قلبه ، واثارت الضحكة التي لم تتعد شفتيه غيظ الرجال . تناولوا جميعا الخبزانات وشرعوا يتسابقون اليه كانت قدماءه في البداية الفضليين .. لكن جسمه بأجمعه صار يستهويهم .. حتى رأسه استمال خبزاناتهم الملتهبة .. وكان استفرأقهم بالعمل كان يشحذ همتهم .. ويفجر ابداعات جديدة .. غاضت الضحكة من قلبه .. وتقبض صدره ، وعرف ان اضلاعه تتحطم ، فخشي ان يدخل احدها في كبذه او في فؤاده . لم يعد المكان فسيحا .. ولم تعد زينة الجدران معجبة .. أطبق الكلح حتى غطى عينيه ورأسه ، ثم عمّ انحاء جسمه ، وما ان غلف السواد كل شيء ، حتى كان الالم قد نفذ ، وكان عناده قد اكتمل ، اما ايدي الرجال فكانت لم تكلّ بعد . وعندما افاق بعد زمن ، لقي نفسه غارقا في الماء ، كما تحسسى دما طريا خلل أسنانه ، وفي باطن جفنيه ، واراد ان يتخلص من الدولار ، لكن صوت النقيب قطع عليه محاولته :

— سأقريب قرابة الساعة .. عندما ارجع يجب ان يكون قد اعترف او أنتهى .. مفهوم ؟  
فجلجل صوت الرجال الثلاثة :  
— حاضر سيدي ..  
وحينئذ أروى وهب جفنيه ..

— ٤ —

كانت اللعبة لا تزال مستمرة حين سمع أمرا بالتوقف .. كان الامر مفاجأة له .. وكان يكابد من أجل أن يبقى امينا على كل



ما تعلم في المخايء السرية واجتماعات المنظمة .. ان صرخت  
فسيشمتون بك .. وان بكيت فتلك بداية غير حميدة .. فقط كرت  
على اسنانك .. لا تصدق دعاوى الاطباء ، فتلك اسنان البورجوازيين  
يضر بها الضغط .. كن محايدا ، فبذلك تنتهي اللعبة بربحك . لم  
يكن الصوت الامر للنقيب هاشم .. استطاع ان يميز على الرغم من  
استغراقه الكامل ..

— من ؟

سأل الصوت الجديد .

— يقول انه وهب يا سيدي ..

— متى قبضتم عليه ؟

— منذ ساعتين سيدي ..

كان الصوت يزداد ألفة لديه ، وقد اسف لان ذاكرته لا تعمل  
جيذا .. سمع الخطبات تقترب منه ، وعرف بعد هنيهة انها وازت  
واسه .. لم يشأ ان يرفع عينيه .. اراد ان يعاين كل عناده ..  
لقد قالوا ان الجولة الاولى لا تستحق ان يبذل فيها كل العناد ،  
فتاتي الجولات التالية اذن وهو خال .. لكنه على الرغم من العلم ،  
والانضباط ، لم يرفع عينيه ، وطال التصاق القدمين الجديدين  
بجسده . ثم سمع الصوت متأنيا :

— وهب .. حقا .. ؟

وتلا امر باخراجه من الدولاب ..

فاق الم ظهره وخاصرته وهو يتمدد كل ما تسببت له به  
خيزرانات وقبضات هؤلاء .. وآثر ان يعصر جفنيه أولا ، ثم ان  
يوفر طويلا قبل ان ينظر الى الوجه الجديد .. لقد حضرت الصورة  
الان تماما ، عرفه .. لكن شفتيه ظلتا مزوميتين .

— انا عبد المنعم .. ألم تعرفني يا وهب .. ؟

لم يرد .. لا اشارة ولا نبسة .. خمن الرائد عبد المنعم ان

الرجل قد تردى كثيراً .. ولذلك أمر بنقله الى المكتب . وهناك طلب له الماء والشاي ، وقدم له سيجارة فاخرة .. رفض وهب السيجارة ، فاكفى الرائد بأن انتزع من الجيب المتسع علبة سجائر كانت نابقة الرأس ، ورمها فوق المكتب ..

— لقد عرفتنى .. اليس كذلك .. كيف حال اخيك مسعد؟  
وحيدان هما .. والغرفة آفرى من تلك التي جلس فيها أمام النقيب هاشم .. ليس ثمة ما يزرع الرهبة .. حتى الاوجاع والرضوض وخيوط الدم في انحاء جسده الفها جميعا .. وتعجب لهذه الالفة السريعة .. الرائد عبد المنعم ازداد هيبة مع السنين . يذكره اكثر فتوة وجاذبية .. لم ينفر منه الآن فقط .. منذ زمن اذاعت المنظمة خبر الجلاد الرائد عبد المنعم .. تبرأ منه هو ، وتبرأ اخوه مسعد ، وانكره الناس جميعا .. فانكرهم هو ايضا .. لكن الرائد عبد المنعم نفسه ، ابن قرينك البعيد ، هو الذي يتلطف معك الآن ، ويتودد إليك ويخفف عنك .. اطراقة وهب تنتظر .. والرائد يقول :

— أنني هنا المسؤول الاول . لا شك ان حسن حظك هو الذي قذف بك اليّ .. دعنا نتفاهم منذ البداية ولنتعامل كأقرباء واصدقاء حقا .

قال وهب : لكنني لست ادوار .. أنت تعرف ذلك ..  
فرد الرائد سريعا :

— اتركنا من حكاية ادوار والنقيب هاشم .. أنا آسف ( اخفض صوته ) لما وقع لك بسبب ذلك .. ما يهمني أمور أخرى فلنختصر الدرب .. قل لي يا وهب ( اتخذ هيئة جديدة ) مع من كنت تعمل خلال الشهور الخمسة الماضية ؟

هزّ وهب رأسه مرفعا .. ليس يلدي هل هي هزة الضحك ام السخرية ام الاستنكار ؟ أنت طماع يا سيادة الرائد .. كل ذلك

تريدني ان افضي به اليك .؟ وبهذا اليسر .؟ ودفعة واحدة ؟ وعلى كل حال فانت تبدو اكثر معقولة من ذلك المعتوه الذي اراد ان يبدل جلدي .

— كنت وحيدا ..

كثير الرائد وهو يحاول ان يتسم ، ونطق بكره واضح ، اخفقت معه محاولات الاخفاء :

— الم يحفظوك اقوالا اخرى ..؟ هذه سمعناها كثيرا .. كل جنئي من هذه المنظمة الملعونة يعمل وحده .. حتى الذين نعتقلهم وهم مجتمعون يقولون انهم يعملون منفصلين .. العمل الفردي ليس مجديا ..

— صحيح يا وهب ؟

لم يجب وهب ...

فعلا صوت الرائد وقد لونه الانفعال الحبيس . لا تخرجني يا عزيزي .. اجبني باستمرار .. انتم في منظمكم تؤكدون ان الجماعة هي وسيلتكم لا الفردية .. وهنا انت تدعي العكس .. هل تريدني ان اصدقك .. لا .. ليس كذلك .. هيا وقل اذن مع من كنت تعمل ..؟

وحرك راسه ويديه على نحو آثار الأشمزاز .. تابع وهب الصمت واكتشف اثناء ذلك غياب الرائد الذي انتظر طويلا قبل ان يقول بلهجة جديدة .

— طيب هذا تركنا منه . سنعود اليه فيما بعد .. من الذي كان مسؤولا عنك ؟

رد وهب وهو مطرق :

— لا أحد .

تمعن الرائد في العينين اللتين لم تبارحا الارض .. واحس ان حقه يتنامى ، فزفر زفرة مسموعة ، وسأل :

— وانت عن كنت مسؤولا .

نفى وهب ايضا ، لا أحد .

سأل الرائد :

— وماذا عن علاقتك بعابد .

تأرجح وهب قليلا بين الإنكار والتوضيح ، ثم أثار الدرب

المختصرة :

— لا علاقة لي به ..

فهم الضابط في أن يصدر أمرا ، لكنه كان يؤثر أن يدع ذلك

احتياطا أخيرا ، وانقضت هنيهات مشحونة ، غير قصيرة ، وكلاهما

مطرق ، ثم قطع عبد المنعم أحجامه ، ونهض ورمى عقب سيجارته

( الذي كان لا يزال طويلا ) أمام عيني وهب وقال مشددا على

مخارج الحروف ومحدقا شر تحديق :

— غبي .. أغبي من رأيت ..

— ٥ —

طال لبثه في مكانه ، وامتد الانتظار ، لكنه لم يشغل ..

الحركة في الخارج لم تفتقر ، والاصوات أيضا . فتش عن بقايا

القوة في جسمه فلم يجد .. أدرك أنه خسر كثيرا ، وخمن أن

اشتباه النقيب به كلفه غالبا . « لولا الشبهة لو فرت نصف ما لقيت

على الأقل » حتى الأفكار لم تعد منضبطة .. حاول أن يعود الى

عابد ، الرفيق الخائن ، فلم يمكث معه طويلا . جال في القبو الذي

يقن أنه سيكون مستقره الأخير ، لكن خياله كان كليلا .. وعندما

انفتح الباب أخيرا ، وتسرب ضجيج اضافي أحسن بالارتياح ..

والانقاذ .. لفت رأسه بصعوبة ، فوقع على الرائد نفسه ، وخلفه

رأى كهلا . تفرس في الوجه الجديد وشك في أن يكون من معذيه

.. جلس الرجل قريبا منه ، اما الرائد فقد استوى جيدا خلف مكتبه ، وتنتهه ، وادار كرسيه مرتين الى الجانبين قبل ان يسأل وهبا :

— ألم تعرفه ..

هز وهب راسه نافيا . قال الرجل :

— كيف حال أخيك مسعد ؟

قال الرائد :

— الرفيق غنيم ..

وصعق وهب ..

استدار بحدة الى الرجل ، واراد ان يأكله بعينه .. ارتد غنيم مجفلا ، وتبدلت ملامح وجهه . كان الرائد يلاحقهما مأخوذاً ، ولم يلبث ان قال :

— لا اشك في انك ان كنت لا تعرف الرفيق غنيم وجاهيا ، فانت تعرف عنه من منظمتك ما يكفي .. لقد كان في طليعة المؤسسين يا وهب .. اليس كذلك ؟

— لم ينتظر جوابا — وكان عضوا بارزا في القيادة العليا .. كم سنة بذلت من ربيع شبابك يا غنيم — لم يتوجه بالسؤال الى غنيم .. كان وهب المقصود الحقيقي ..

ها هوذا حينما تبين من انه قضى كل هذا العمر في ضلال ، وهدر كل جهاده من غير طائل .. ملك الشجاعة وردع نفسه وانسحب .. ودعا كل العاقلين فيكم الى ان يسيروا سيره .. ( كان صوت الرائد قد علا ) لقد مد يده الينا ، فساعدناه واكرمناه .. ونحن نعف دائما .. بل ونعين كل من يتوب ..

كان وهب يود وهو يستمع الى الرائد ، ان يلتفت الى الرفيق غنيم ثانية ، وان يتملى منه جيدا .. لقد أنتظر في الماضي طويلا ان يجتمع بالقائد غنيم .. كان يحلم به في سنه الاولى ، وبالرفاق

الاولئل الاخرين .. لكن غنيم سقط .. انهار منذ اكثر من سنتين .. قوضت عمدة الاقبية والسجون ، وشجاعته .. وليت آلبليه كانت به وحده .. لقد انقلب دميـه في يد هؤلاء ، يلوحون به امام عيني كل معتقل جديد .. ها هوذا رفيقكم الاعلى فد ارعوى فاقتفوا اثره .. ران الصمت .. واغبط الرائد في سره .. ( ان وهب قد بدأ يفكر .. كم توفر علينا ايها الرفيق غنيم .. كيف سيكون خذلان النقيب هاشم .. ) ولكن غنيم لم يكن قد صحا بعد من سوط وهب .. لقد لسعه بتلك النظرة اللاهبة ، حتى زعره . قال الرائد وهو ينهض :

سادعكما معا حتى تشبعا

وخيم سكون ثقيل .. وهب يفكر في رفيقه الذي اقترح في احدى الاجتماعات ان تجري للرفيق غنيم محاكمة غيابية ، ويكلف رفاقنا السجناء بتنفيذ الحكم . ( غنيم خطر على المنظمة غدا .. يخرّب معنويات الرفاق .. فشا اسرار المنظمة كاملة .. غنيم يجب ان يموت داخل السور الذي اقاموه حوله .. في عقر الجنة التي ارادوها له او ارادها لنفسه .. غنيم انشودة في يد الجستابو .. ) قال وهب لو ان المحاكمة تمت ايها الرفيق لتوليت تنفيذ الحكم الان .. وغنيم لم يجزؤ ان يفتح فاه . تكوم الجبن من كل انحاء عمره وانصب فوقه بعد تلك النظرة .. امتدت الدقائق بهما قبل ان يبدأ وهب :

— نعم .. ماذا تريد ان تقول ؟ ..

كنّ غنيم امتنانا للرفيق الشاب ، على الرغم من اللهجة غير الودية التي نطق بها .. لقد هون عليه ان يبدأ .. اشعل سيجارة مثل سيجارة الرائد ، وبلغ الصفارة ثم قال :

— يا اخي العزيز .. يا رفيق .. الدرب مسودة .. ليس من مخرج الا الى الموت .. وما الثمن . النصر .. ؟ اين هو ؟ ..

التغيير ؟ دلني عليه وخذ روحي .. دع عنك ذلك يا وهب ..  
 انت في زهرة شبابك الآن .. انظر اليّ ( ومد كفه الى ذقنه ) لقد  
 اضعت عمري وفتوتي فماذا جنيت .. وماذا جنيتم انتم .. وماذا  
 جنت الناس والبلاد ؟ الدرب مسدودة يا وهب .. وهؤلاء وحوش  
 حقا .. وكلما سرت أكثر طلّعوا عليك بشراسة اكبر ..  
 امترك وهب شجاعة لم يعاينها من قبل .. وفضل ان يوفر  
 على غنيم جهده ، فقاطعه بحماس وأنفعال ، ممثلا :  
 - اعقل يا بني .. احك لهم كل شيء .. انسحب من  
 المنظمة .. واربط نفسك بهم أيضا .. توج تاريخك بالعار .. علامة  
 الوفاء لقضيتك ومنظمتك النكوص .. كما فعلت يا بني ( ودار  
 بجمعه الى غنيم ) لقد هونت عليك .. أليس كذلك ؟ ..  
 هل تريد ان تقول اشياء اخرى .. ؟ خير الكلام ما قل ودل -  
 ها انت تتعري جيدا فهل عرفت نفسك ايها الأساقط ؟  
 وفيما اخذ وهب يتدفق ، كان غنيم يحتقن ويعاين الحصار ،  
 والوخز ، فيفر من كلمة الى كلمة ، ومن شوكة الى شوكة ، حتى  
 هب وقد اعجزه الاحتمال ، كما اعجز ذات يوم .. واكب من على نار  
 وهب ، وفرس ، وقد عي ، ثم اندفع خارجا ..  
 ومن الباب انسربت كلماته المهلوعة :  
 - انه يعجز الشيطان .. لا حيلة لي فيه .. تدبروا امره  
 انتم ..

## - ٦ -

رافض النعمة انت .. ناكر الجميل - قال له الرائد ، وازاف  
 اني بريء منك .. لقد ادبت حق الجيرة ، ولكنك تصر على ان تتركب  
 راسك .. حسنا .. هل تعرف ماذا يعني ذلك ؟

اعترف وهب في سره أن محيا الرائد ، وعينيه ، وحركة  
فمه ، جميعا ، تسبب هلعاً حقيقياً .. وود لو أن هذا الغاضب يترك  
له فرصة أخرى .. لكنه كان قد تيقن منذ زمن بعيد من بطلان  
التمني ، ولذلك خرس ، بيد أن الرائد عبد المنعم كان مصمماً على  
أن يتحرك اللسان اللجج ، فمدّ يديه إلى فم وهب ، وفتح بهجه  
يسير ، وحاول أن يقبض على تلك القطعة التي تفيظه بصمتها وفكر  
وهب في أن يعض على الأصابع الدخيلة ، ويطردها ، وانساق مع  
فكرته قليلاً ، قبل أن تفرغ رأسه منها صفعاً معمية وحسب بعد  
لحظة أن أركان حنجرتيه . - وخاصة حلقة - تتزعزع ، فتفرس في  
وجه الرائد ، وانقضت ثوان من التحدي ، وهمّ أن يقذف بقبضتيه  
المقيدتين في الوجه الوحشي ، ثم همّ أن يضرب بكامل جسمه ،  
وكان الرائد قرأ ما في دخيلة وهب ، فرجع إلى مكتبه و ضبط على  
أحد الأندار ، فدخل قبل أن يرفع أصبعه رجلاً ، وفهم الجميع ،  
فهموا دون أن ينبس أحد . انتقل الرجلان بإشارة من الاستعداد  
قرب الباب إلى الفريسة .. حرهما وهب من لذة الجرح . لم  
يسعدا لانتقاده .. إلى الصالون .. مرة واحدة رسمت الدرب في  
الذاكرة جيداً .. لا ركلات في المجر ، ولا جدار يرميه إلى جدار .  
شكر لهما هذا التأذب الزائد .. في الصالون كان الرجل الثالث -  
يعلق أداة بجهلها في أحد المسامير التي تكسو الجدران .. الدولاب  
في الزاوية .. رآه وكثر له .. لأن ترهيني هذه المرة أيها العزيز  
.. لم تحفّ الماء بعد ، لا عن ثيابه ، ولا عن البلاط القذر . امتدت  
أحدى القبضات إلى كنزته الوحيدة فعرته منها بطريقة لم يعاينها  
من قبل .. ثم امتدت قبضة أخرى إلى قميصه الداخلي والخارجي  
معا فنزعتهما بقوة بهرته ، وضغطت بعض أضلاعه ..  
- اخلع حذاءك ..  
وقذف به إلى الأرض .. أراد أن يطيل فترة خلع الحذاء ،



لأنهم سكنوا اثناءها . سمع وهو ينفذ الامر أقداما تقترب ، فحزر  
ان الرائد قادم . كان النقيب قادما ايضا .. تباطأت الخطوات بين  
المدخل وجسم وهب العاري . انهضه الرائد من جمته . الرائد  
هو الآخر شجاع وقوي - قال وهب وهو يتألم لرأسه ، ويخشى ان  
تشقق الجلد اذا استمر تدخلهم فيها - تفتق ذهن النقيب عن  
فكرة بارعة .. انتزع سيجارته المفلتره المتوهجة من بين شفثيه  
بعصبية ، وراح يضغط على زند وهب . اجفل وهب ، الا ان  
القبضات الحديدية ضمنت ثباته . عض شفثيه ولم يتذوق طعم  
الدم الذي تفجر منهما الما ، وشمخ برأسه ، وانتفض .. سمع  
بقلبه كما سمع باذنيه نشيش اللحم المحروق .. قال الرائد :

- قرفص يا كلب .

تخلت عنه القبضات ، وقرفص . وعلى ظهره أخذ الضابطان  
يتباريان في اطفاء السجائر .. ماذا يجدي ان يتعلم او يتزحزح؟  
فوق كتفيه يضغط جبل احد العناصر ، وفي منافذ الهواء المتبقية  
يكمن الاخران . لم يصرخ . كانت اسنانه وجفناه ملجا وحيدا ..  
حتى الرأس منعوه من ان يفرج بتحريكها .. وتناول عليه الزمن  
قبل ان يسمع :

- ستستمر في السكوت ..

كان الرائد يسأل ساخرا . قال النقيب وهو يضحك :

- هل حسبت نفسك ادوار حقا ؟ هل تتوهم أنك رئيس

المنظمة حتى تقاوم ..

استطاع ان يتأكد ، على الرغم من الالم المحبوس في كل  
عروقه ، ان النقيب لم يعد يريد ان يبدل شخصيته ، وبعد قليل  
- وكان الضابطان قد شبعوا من لحمه - تأكد ايضا ان النقيب  
يتظاهر الآن انه كان يهزل عندما خاطبه « انت ادوار ، وانت  
المسؤول الاول .. »

كان الصالون قد اخذ يدور به .. حتى الرجال الاشداء الذين يقفون حوله اخذوا هم يدورون ايضا ، لكن ذلك لم يمنعه من ان يرى خشبة تقترب منه ، وترتمي عند قدميه . امعن جيدا فاذا بخشبة اخرى . لم يكتشف ان الخشبتين موثقتان الى بعض ، الا بعد ان وضع ساقيه بينهما ، وانشدتا . لقد عصرتا اللحم والعظم فوق رصفيه عصرا ، ومع ذلك فقد استكان لهما بعد قليل ، وتخيل ان الخيزرانات قادمة ، لكنه انتظر عدة دقائق ، توضح بعدها ان خياله قاصر . كان الضابطان يغادران الصالون ، وكان شريط اسود مزدوج وطويل يقترب منه . انه ليس وثاقا متينا فماذا يراد به ؟ . وقطع عليه تساؤله ان حامل الشريط يجرب ان يلمس قدمه بحذر وخشية واضحة ، ثم اذا به يقفز في الهواء ويتزلزل كيانه . لقد تخطى سقف الصالون نفسها ، وانقذف الى الفضاء الاعلى ، ثم تارجح بجنون حتى كاد ان يسقط الى الدرك الاسفل من النار .. وحسب ان لعنة ابدية قد حلت به ، ثم فتح عينيه ، فابصر الشريط مرميا قريبا منه ، وادرك من خلال الوهن القتال الذي سمعه وسيطر عليه ، ان الكهرباء فظيعة ، ووحشية ، على الرغم من بصماتها الحضارية الرائعة خارج الاقبية والسجون .. وانتفض قلبه لاصبعي الرجل تمسكان بطرف الشريط من جديد ، وتقربانه من القدمين الموثوقتين ، حاول ان يهرب ، او يتقلب على الاقل ، فاكتشف ان الماء قد زيدت تحته وان ذلك هو الذي ضمن ناقلية ممتازة للكهرباء ، ولكن ذلك لم يبعد به عن لمسة سحرية اخذته بعيدا هذه المرة عن الصالون والسقف والفضاء والنار والرجال الثلاثة والشريط ، وجعلته شيئا آخر ، غير وهب ابن نجيب المختار .

ادار ناظريه ، اول ما فتحهما ، حوله ، فأبصر الجدران عارية .. دقق جيدا ، فخيل اليه أنها قد ضاقت ايضا واغبط لان الزينة الحافلة التي كانت تغطي كل جدار قد اختفت .. كان قد شد ظهره واستوى قليلا ، وعندما عاد الى استلقائه الاول ، وجد ان السقف قريبة منه على غير ما كان قبل قليل . حاول ان ينظر في الساعة فلم يفلح في تقريب يراه من عينيه .. اكتاب ، وحرك يمينه ، فطاوعته بمرونة سرت عنه . واستند اليها ، وعزم على ان ينهض ثانية ، وبعد محاولة واحدة ، عدل عن نيته .. كانت ثيابه قد زادت ابتلالا .. حتى رأسه - اكتشف فجأة - مبتل تماما .. قدماه زادتا ثقلا ايضا .. لا ريب .. نظر الى رصفيه اللذين اكتسبا لونا خاصا ، ورغب في ان يتحسسهما ، الا ان وجع الظهر حال دون ذلك . تذكر السجارات والضابط .. حمد لاليتيه انهما لا تشكوان .. لم يبق في جسمه ناحية سليمة سواهما .. بحث عن الساعة مرة أخرى فلم يجدها .. وصعدت اصابع يمينه - دون ان يتدخل - تتلمس ساعده ، فعضده ، وتوقفت عند اللطعة الاولى .. حرف رقبتة اليها فانعصر القلب .. كانت حفرة حقيقية في لحمه تنز .. بحث حوله عما يلتقط به ماءها فلم يجد شيئا .. استطردت عيناه في كشف المكان ، فوقعتا في الزاوية المجاورة ، على حذائه ، واستطاع ان يصل اليه بعد ان قرر المفامرة بيديه وخاصرتيه . في الحذاء كانت الساعة حزن لانها مشوهة واراد أن يعتذر لآخيه مسعد عن ذلك .. داعب صدغيه ثم فرك جفنيه ، وعاد يتملى السقف والجدران حتى وصل الى الباب ، فذهبت شكوكه ، وجزم - تماما - في انه نقل اثناء غيبوبته الى هذه الغرفة .. كانت ساعته تشير الى

الواحدة .. تسأل عما اذا كان الوقت ليلا ام نهارا ؟.. فلا شك  
انهما يستويان هنا .. ليس ثمة ثقب واحد في هذا المكان ،  
والضوء الذي يشع من لعبة شحيحة يضيف ظللا حزينة الى  
النفس ويشحب الغرفة .

هل الباب مفتوح ؟ هل ثمة من يحرس ؟ اين هو الصالون  
اذن ؟ واين هي تلك الوحوش ..؟ واحس ان مشائته تتضخم ..  
وانقبض لانه استشعر ضغطا في جوانبها .. حسب للحظة انه  
يريد ان يتبول ، لكن الضغط أخذ يصعد ويستولي على انحاء  
مختلفة في امعائه وفي معدته ، ثم رآه يتراجع الى قفاه ، فتأكد  
من انه يريد ان يتغوط .. لكن الألم زال كله فجأة .. وتملكه  
ارتياح كبير أغمض له جفنيه ، الا انه فكر اثناء ذلك ، مرة أخرى ،  
يدورة المياه ، ثم فكر مليا بالطعام ، فسرى التحرك الموجه عينه  
رويدا رويدا .. لعن التفكير وصد حاجاته الفريزية بقسوة ..  
( ليس في هذه الغرفة شيئا مما تريدين .. ) بيد ان الالتحاح كان  
شديدا هذه المرة .. صبر وقتا اخر ، في محاولة للماطلة ، ورأى  
ان يسري بالمشي .. ازداد حزنه لانه خشي ان يتفاقم عجزه ..  
ثم قرر أن يزحف الى الباب دون ان يدري لماذا ؟ حتى اذا وصل  
تردد في ان يطرق .. انهم الان غافلون عنك .. من يدري انهم  
سيعودون بك الى هناك ان أعلنت عن استيقاظك ؟.. وأذا كانت  
الواحدة ليلا ، وكانوا نائمين ، فكيف سينقمون من ازعاجك ؟..  
ثم من يدري على كل حال انهم سيفتحون ..؟ وفوجيء وهو في  
غمرة اقدامه واحجابه بمفتاح يتحرك في قفل الباب ، فتضاعف  
قلقه ، وتاه بين الفرح والخوف ، وعندما انفتح الباب ابصر في  
فرجته وجها جديدا ..  
— ماذا تريد ؟

سأل الوجه بحيادية خففت عن وهب . اجاب مغضيا

— دورة المياه

وتلثم وهو ينطق .. وكان على وشك ان يتكلم ثانية ليتأكد من سلامة لسانه ، حين جاء صوت الحارس :

— انهض .

اطرق وهب وتردد ، ثم تكلم حزينا والعجز يكبله :

لا أستطيع ..

فلبث الحارس برهة كانت نار وهب اثناءها تتفاقم أيداء ،

ثم قال :

— هات يدك ..

لم يصدق وهب .. وأراد ان يشكر الرجل ، الا ان الاستغراق في الانتقال الى دورة المياه انساه ذلك ..

وفي الداخل ، لم يستطع أن يتبين أيضا ان كان في ليل ام في نهار .. فقرر ان يستفسر من الحارس فور خروجه .. وقد فوجيء عندما فعل بالرجل يسأله :

— وماذا تريد من ذلك .. ما الفرق بين الليل والنهار هنا ؟

لم ينفر من السؤال على الرغم من الدواعي .. وتمنى ان تطول به الطريق الى الغرفة .. عند الباب استوحش ، وتلبث لحظة . ثم ادرك غباء التمتع والدلال ، فولج ، وهو يرفع عينيه الى الحارس في نظرة أخيرة ..

— ماذا تريد ايضا ..؟ اذا لم تقلقني سكت عنك .. كلهم

ينام ما عدانا نحن الاثنين ..

ابتأس وهب لكلام الحارس .. كان يود الا تتغير لهجته الاولى ، وتردد فيما يطلب ثم وجد لسانه يتحرك على هذا النحو :

— شكرا لك .. لن أزعجك ..

وانصفق الباب ..

الصقيع لص بارع .. لو لم يكن كذلك فمن اين كان له ان يتسلل الى هذه الغرفة القبرية ..؟ بل من اين كان له ان ينفذ الى نخاع العظام ؟

في البداية ارتجف .. اخذته القشعريرة .. ونقر من البقعة التي تحتها قعدته برهة ، ثم عاد اليها ، ملهوفاً . لقد تيقن انها احنى أنحاء الغرفة عليه .. أن قدميه لا زالتا ترفضان التعاون معه . جالت عيناه ايضا - أول ما ضبط الصقيع - تبخشان عن دثار فخابنا .. تواضع وحلم بأية قطعة قماش ، فما نفع اللحم ولا التواضع .. لم يكره صيف مدينته الصحراوي من قبل .. كانت برودتها الليلية تنعشه .. حتى في الشهور الخمسة الفائتة ظل يحب ليلها وبرودتها .. ( كثيراً ما كان يبيت في العراء .. ) هل بُذته هي الأخرى ..؟ هل خاتنه مثلما خان الرفيق عابد ..؟ القر والجوع والالام يتضافرون عليه جميعاً في هذه الليلة المديدة .. وحده هذا الضوء المسلول ظل حيادياً .. لقد عاهدت الحارس على الا اقلقه .. لا بد ان يصدق العهد .. هل ينام الحارس في مثل هذا العراء ايضا ..؟ هل يكون الحارس سجيناً هو الآخر ..؟ الامعاء اللعينة والبطن الخاوية تلج .. منذ خمس عشرة ساعة لم ابلع لقمة واحدة .. كان ينوي - بعد لقاء عابد - ان يتناول عشاء معقولاً مع الرفيقة سربوهي في المخبأ السري .. لقد وعدته بشرائح وبطاطا مقلية وبعدد وافر من الارغفة .. كان الجوع في المخبأ اقل اذاء على كل حال منه هنا .. كان يرجح في سره ان يطلب الى الرفيقة سربوهي أن تنقل تقريره النهائي عن عابد آه .. لو انهم استجابوا اليه منذ نقل انطباعاته الاولى .. في مسيرة المنظمة يلزم ان تكون العلمية أولاً وآخراً .. ولكن حдسي

الباطني لم يخطيء مع ذلك .. أ تكون البصرة تمرست بالعلمية ..  
على الرغم من السنوات القليلة التي قضاها في النضال ( العلني  
والسري ) فقد اكتسب بصيرة نافذة .. قلت لهم أثر اللقاء الاول  
مع عابد :

— هذا الرجل لا يصلح لهذا الزمان .

وقدمت تعليقات لم تكن كافية ، كما رأى الرفيق المسؤول ..  
( اكتشف أن ذهنه يفر من امعائه وحروقه ومن الصقيع .. وانه  
يفيد من ذلك .. فأراد أن يستغرق فيه .. ) قلت لهم « صاحب  
سيارة » .. فقالوا سنحتاج اليها .. ويوم احضر معه من بيروت  
في إحدى سفراته رزمة من المنشائر تراجعت احتجاجاتي .. لكن  
اللقاءات التالية اسعفت في كشف عابد ..

جرب مرة ان يتأخر في الحضور .. كان زمان الموعد  
العاشرة ليلا في ساحة المنصور حيث يتيسر الاخفاء .. لطفى في  
احدى الزوايا المعتمة يرقب عابد .. كان يريد أن يختبر .. وصل  
عابد فما انتظر دقيقة واحدة .. خالف التعليمات .. كان عليه ان  
يلبث خمس دقائق ، يتظاهر خلالها بأصلاح خطأ في السيارة ..  
حاول وهب أن يناديه لكن السيارة كانت قد طارت .. قال لهم  
« عابد ليس انضباطيا .. » فقالوا : انت ستربي فيه الانضباط ..  
وماذا يذكر ايضا من عابد ؟ الفخ ؟ الفخ هذا المساء ؟ كان عليّ  
الا اقع .. اجل سيتشددون في محاسنتي على هذا الخطأ ..  
عابد هو السبب .. هل هذا كاف .. ؟ عابد الذي كنت أقول لهم  
عنه . عابد الذي كنت أنوي ان اختتم السيرة معه هذا المساء ..  
لقد خطت فكرته عن ذلك في ورقة كان سيسلمها الى سربوهي عقب  
عودته .. لعل سربوهي ان تقع عليها فوق احد الرفوف .. او في  
احدى الزوايا .. سيقدرون موقفه ان حصل .. قال له عابد مرة :  
— يا رفيق وهب .. يبدو أن احدهم قد اشتبه بي .. اشعر

اني مراقب في بعض الاحيان .. واخشى ان تعظم شكوكهم ..  
فقال وهب لرفاقه : اما ان يكون عابد جباناً ، او دعيا ..  
ويومئذ غضب الرفيق المسؤول وقال : لماذا المنظمة ان كان  
العضو سيشفرف آليها جاهزا مجهزا .. ومن اي سماء سيهبط  
علينا هذا الملاك ..؟ بيننا يتخلى الرفيق القادم عن جنبه وانت  
ستشذب زوائد عابد ..

فأقر بغفلته .. واثق نفسه بعهد سري على ان يلغي كل  
تحفظاته وتساؤلاته حول عابد .. بيد ان ذلك العهد لم يعمر  
طويلا .. قال وهب : انا اعيش هذا الانسان .. خبرته اكثر  
منهم .. صحيح ان خسارة أي صديق في هذه الايام كارثة ،  
فكيف بمن يوشك ان يغدو عضواً ..؟ ولكن ..؟ نبقت الشكوك  
ثانية .. اطل رأسها ..

قال عابد وهو يعيد احد المناشير ، بعد ان قراه على ضوء  
السيارة الداخلي :

- افضل الا احتفظ به .. اقرا هنا واعيد لك هنا .. هذه  
الايام لها رائحة خاصة .. يجب الا يضبطوا لدي أي مستند ..  
هل هو جبان الى هذا الحد ؟ يوم غامر وتقل الرزمة من  
بيروت اتفنى عنه الجبن .. ولم يسمح لاية اشارة ان ترتسم ..  
( كانت إحدى الاشارات تتهم عابد بالتعامل مع المخابرات التابعة  
للسلطة .. ما دامت الشجاعة المعهودة فيه غير جذيرة بمثل هذه  
المهمة الملقومة .. ) لعن نفسه اولا عندما رأى عابد يرفض  
الاحتفاظ بالمنشور .. ما أدورع ان يقول له : ( اخيرا ، لا أريد ان  
أعمل ) . كنت اطالب بطرده ، فاذا به يقول لي وللمنظمة :  
أستودعكم الشيطان .. لقد أجهد وهب فكره في التحليل يومذاك ،  
وقال ان عابد أن لم يكن جباناً فهو عميل ذكي .. انه يريد أن يسد  
منافذ كل الشكوك .. لن يحتفظ بالمناشير .. يقرأها هنا ويسلمها



هنا .. لكن وهب لم يجرؤ على أن ينقل ما اعتمل في داخله الى المنظمة .. لا مناص من أن يجد الرفيق المسؤول تعليلاً .. لقد كان في أصمت الخطأ ..

كان الزمن يعرج به بطيئاً .. اين هي تلك النجوم المسمرة .. الساعة تؤكد ان الليل لم ينته بعد .. او أنه لم يبدأ بعد .. اللحم والدم قررا الا يسكتا على سلوى عابد .. او غير عابد لن يتسلل شعاع واحد الى هذه الغرفة مهما تضيأت الصباحات في الخارج .. عهد الحارس لم يزل حيا .. من أجبن انت أم عابد ؟ .. الوفاء لراحة الحارس يصونه خوفك .. ولكن يوما في السجن يمضي .. النوم لا يأتي .. والنور لا يأتي .. وكل اشياء الدنيا الاخرى غائبة .. فاین انت يا ساعة اللقيا ...

## - ٩ -

ما ان فتح الباب في الساعة الحادية عشرة - للمرة الثانية هذا الصباح - حتى استبشر .. قال الحارس : ان النشاط يتوقف في القبول-نهاراً ... ثم أحضر له طعاماً بالنزر الذي تقده ايساه .. كان يجزم انه سيلتهم جبلاً .. لكن الاشتهااء العارم ضاع سريعاً ، مع أن الجوع ظل حيا .. استطاع ان يفغو عقب الافطار المهرّب فترة غير قصيرة .. كانت ثيابه قد جفت ، وكذلك شعر راسه . في فرجة الباب وقف هذه المرة وجه جديد . لم يوح اليه بمشاعر عدائية .. حزن للحارس الاول .. ولكنه ، رغم ذلك استبشر .. لم تطل وقفة الوجه الجديد . يبدو أنه كان يخفي بعض الادوات .. ولج ، وأوصد ، ثم راح يمد سلكاً رمادي اللون ، مزدوج الضلع .. غاص البشر من محيا وهب ، ولكنه ظل يبعد احتمال عدائية هذا الانسان الذي أحضر سلماً حديدياً صغيراً

وإبدل اللعبة الشحيحة ، فسودت العتمة كل شيء .. لم ينبس  
وهب .. أستبد به القلق والترقب .. ماذا يصنع هذا الرجل ..؟  
لقد استمر تحت العتمة ينجز أعمالا أخرى .. طال الانتظار  
الصامت .. ولكن الخشية كانت تتراجع رويدا رويدا عن السجين  
المنهك .. انتهى الرجل من أعماله ، وأخرج بقاياه ، وأوصد جيدا .  
لا ضوء ماذا فعل هذا المجنون ..؟ ثار وهب .. هل ستركسي  
في العتمة .. سيكون جهاده كل هذه الدقائق من أجل إعطاب  
تلك اللعبة .. لقد آنست ليلي ووحشتي ووحدي . اشتاق الى  
شحها .. وبغته فجأت عينيه لمعة حادة حسبها نصلا .. أمضى  
من أي نصل كانت .. لقد أخترق رأسه .. فرك عينيه فركا  
مبرحا ، وحاول أن يفتحهما فعجز .. انتظر أن يتفجر دمه ..  
حاول أن يسترق النظر فأفلح بصعوبة وتكلف أذى وصبرا .. لقد  
استبدل الشيطان الشمس نفسها بذلك الضوء الخافت .. ايقن  
تماما أن اللعبة الجديدة تتفجر حمما ... وقد تحسس الحرارة  
الحارقة في جبهته وصدغيه وشعره . ثم في عروقه .. سيكون قد  
علق أكثر من لمبة ؟ اعترف بفبائه أذ استبشر لذلك الوجه ..  
ولم يطل الأمر به حتى باغته نصل آخر اخترق أذنيه من أقصاهما  
الى أقصاهما .. حاول أن يحمي سمعه بسبابتيه لكن ذلك لم  
يجد .. أمثلا غيظا ، وصرخ ، لكن الصوت الذي ملأ الغرفة - كما  
النور - لم يفسح لصراخه .. اكتشف أن النور كان أكثر  
رحمة .. لقد تجاسرت عيناه على زاوية منه ، أما هذا الصوت  
فهو رهيب حقا .. لن يجرؤ على أن يفتح أذنيه لحظة .. مؤكدا  
أنه سيمنى بالطرش أن فعل .. من قال لكم أنني أحب الفناء  
والموسيقى يا سادة ..؟ من قال لكم أنني استوحشت في قبوري  
هذا ..؟

خرس كل شيء فجأة .. الضوء والصوت معا غارا .. أرحي

سبابتيه. وساعديه ، وفتح عينيه واذنيه .. ما أروع العتمة وما  
أعذب الصمت .. تنفس بارتياح .. وعندما أتم زفيره كان البهر  
والضحيج قد كرا عليه ثانية ، وببفتة مهلكة .. أن المسألة ليست  
لطفا اذن !!! . والتهار موسم عمل عند هؤلاء كما الليل .. هل يكون  
الرائد هنا ؟ هل النقيب هاشم ؟ هل الوحوش الثلاثة التي  
أفترست لحمي أمس ؟ هل هي مقدمة نهارية لليل موعده ... ؟  
في المرة الثالثة استوى في صدره الحنق والوهن ...  
وفي المرة الرابعة ، دحر الوهن الحنق ، واكب وهب على  
وجهه ، وكاد ان يبكي ..



تلمل قليلا ، ثم ألقب على قفاه ، وهو لا يزال مطبق  
الجفنين ، أما سبابته فقد تخطتا على ما يبدو منذ زمن عن اذنيه .  
جرب ان يفتح عينيه فلم يقع الا على الظلام .. ركبته خشية  
مفاجأة .. ايكون قد عمي ؟ حدق في الظلمة ، ثم انصت ، وانصت ،  
ولم يسمع ما يدل على حياة .. تضاعف هلهه .. ايكون قد اصابه  
الطرش ايضا .. ؟ يا للنعم المفقدة ... تكلم .. قال شيئا ..  
تربع جالسا .. لمعت في خاطره الساعة .. الساعة .. اختطفها  
الى عينيه فأبصر اشارات الفوسفور الباهتة .. الصقها باذنه  
فسمع الدقات لثمها عشر مرآت .. ومد قدميه مفتبطا .. لكن  
أيقظ ان يكون قد اغفى على ذلك الصوت الجهنمي والضوء  
القاتل ؟ ضحك .. كم هو مترف .. كم هو بورجوازي .. لقد  
استطاع ان يغفو على تلك الالحن الهادئة والانوار الشعرية ..  
ود صادقا لو انهم لا يعودون الى ذلك اللطف .. وتحسس أنحاء  
جسمه السفلية .. الوجة رابض في كل مكان .. أطرق ممعنا

وقال « حاولوا ان يتسللوا الى اعصابي .. المجرمون . يريدون ان يقتلونني من الداخل .. ليس بسبب الضرب او النوم او الجوع .. مؤكد أنه لم يعاين مثل هذا التعب العصبي عمره .. هذا المكان حافل بالجديد . قاده امعانه الى الليلة الاولى في رحلة الشهور الخمسة آلفائنة .. قالت له نور حينئذ : جسمك معافى .. لكنك منهك من الداخل .. ومن يبدأ الرحلة لا يلزم ان يكون كذلك .. لقد آذته تلك العبارة .. وجعلته يتعجل الرحلة والمخايب والخطر .. ولولا انه كان اللقاء الاخير لما غفر لها .. آه لو تبصرين يا حبيبتي .. منهار انا من الداخل والخارج الآن .. الحروق تنخر والاعصاب تنز فماذا تقولين بالله ..؟ وأستبد به الحزن كما في كل مرة حضرت اليه نور ، بعد ذلك اللقاء .. كانت ( المخبرات ) توشك ان تنهي امره .. المنظمة قالت ذلك ، وهو قد ثبت منه .. وكان عليه ان يختار .. هل يكف يده حتى يكفوا مراقبتهم او ملاحقتهم ..؟ ولئن فعل فستبقى له نور والمدينة والدنيا الاخرى .. هل يرحل الى المخايب السرية ويضاعف خطواته على درب العذاب الواعد الذي ارتضى ..؟ حتى المنظمة تركت له الاختيار ، الاختيار انهكني من الداخل يا نور .. لم يكن يحسب ان الزمن سيطول بينه وبينها مثلما كان .. خمسة شهور .. لا سربوهي ولا مسعد استطاعا ان يرتبا لقاء .. كاد يطلب مرة في الاجتماع الرسمي للفرقة ان يدبروا له امر لقاء .. في الايام الاولى كان يهنا لذكرها كلما اخلد لراحة او نوم .. الايام توالدت وتراكبت ونور قصيئة .. وذكرى الهناء صارت تمتزج بالحزن .. ثم استبد بها الحزن .. ماذا يكون قد حل في نور .. قدم الصيف منذ زمن واغلقت المدارس فاین تكون الآن ؟ هل عادت الى القرية ..؟ هل تذهب الى ام صفوان وعش اللقاءات الاولى ؟ هل تذهب الى العزيز فارس ؟ مسعد ادرك يوم كانا لا يزالان معا

شوقه وقلقه .. وحاول ان يخفف عنه بكل وسيلة ، حتى أيس ،  
فأنتفض في وجهه :

— هذا كله خطر على أهليتك للنضال .. أن فيه جورا على  
المنظمة .. هل تحسب ان نور تريد منك ذلك كله ..!

كم انت رائع يا مسعد .. لقد سألني عنك امس الساقط  
غنيم .. وسألني عبد المنعم .. عبد المنعم صار وحشا يا مسعد ..  
هل رأيت نور بعد ان افترقنا يا أخي ..؟ كنت تقول لي دائما  
سنتلتي جميعا هناك .. في قمة جبل المرام ستكون اللقيا ، حتى  
الذين يقضون على الدروب الصاعدة قلت سننقلهم معنا الى  
القمة .. لكن لو جاءت نور الى المخبأ مثل سربوهي الا يكون لقاء  
قبل القمة .. لو تأتي الي هنا في هذا القبر الا يكون لقاء يا  
مسعد ؟ ألم ترو لي عن الاحباب الذين عاشوا في السجون  
والاقبية والمخايء .. في مدينتنا وفي كل المدن يا مسعد ؟؟  
كشر وهو يصل الى هذا .. لقد كان يؤمل في المخبأ على كل حال  
ان يلتقيا .. حتى بعد ان ذهب مسعد ، وضاق الخناق ، وصارت  
سربوهي تغيب أكثر .. أما هنا فهل سيؤمل بعد ؟ ومتى يكون  
الوعد ؟ وابن يكون ؟ صدره ينضغط .. والكآبة تداهم .. ثمة  
القمة .. القمة والسجن ، والمدينة ، ونور ، ومسعد ، واللقاء ،  
والانهاك .. اعصابه المنهكة .. وجسمه المهودود .. أقتل من  
الداخل والخارج معا .. لكن ذلك من اليأس .. واليأس داء  
السجين الوحيد .. كانوا يقولون .. الرفاق السابقون الى هذه  
الاماكن جربوا وعرفوا .. أمس لم يصرخ .. ولم يفكر الا في ان  
يفرغ الجلادون من اعمالهم في جسده .. كان يجهد في ان يحيّد  
لحمه ودمه ، واليوم ، لن يفكر الا في ان يفرغ اولاء من اعمالهم  
في اعصابه وفي داخلته .. سيجهد في تحييد احساساته ..  
سيقاطعهم بكل كيانه .. وسيتحداهم .. وهكذا سيناضل

ضدهم هنا مثلما كان يفعل هناك .. وصمم على ذلك .. فأجتاحه  
تيار الحياة دفاقا .. عندئذ ، لم يعد في الغرفة ادنى ما يحزن  
او يثير .. وأسعفه في ذلك انه كان قد تيقن - بسبب استمرار  
الصمت - ان اولاء قد عدلوا عن لعبة الصوت والضوء ، وان يكن  
عدولا مؤقتا ..

## - ١٠ -

اقتاده الحارس الى غرفة التحقيق .. قلب عينيه في القبو  
وهو في طريقه الى الرائد عبد المنعم .. حلول ان يتعرف الى  
المكان ، في الخطوة الاولى لم يسعفه البصر .. كانت العتمة في  
الداخل قد اطبقت عليه ساعات .. بعد ان ملك زمامه رأى  
الصالون الى يمينه مباشرة .. وامامه امتد الممر الذي قادوه امس  
فيه مرتين .. بحث عن غرفة النقيب هاشم فلم يعثر عليها ، وكان  
قد وصل الى نهاية الممر ..

دخل غرفة الرائد متأديبا ، وحيا ، فهش له عبد المنعم  
وصافحه وأمره بالجلوس .. ثم تظاهر بتوضيب بعض الاوراق  
المنتشرة امامه ، وعرض عليه سيجارة وطلب له كأسا من الشاي ..  
لم يكن قد ذاق طعاما منذ الصباح .. قبل ان ينهي كأسه قال  
الرائد :

- لعلك تكون قد كابدت ليلة امس او نهار اليوم .. أننى  
اعترف ان هذا يؤسفني .. لكن كيف كان يمكنني ان اتصرف  
وأنت ترفض كل مساعدة .. بل وتستسلم للشيطان .. انك لم  
تهن عليّ يا وهب ؟ ..

صمت الرائد برهة ثم عرض كأسا ثانيا من الشاي .  
لم يرفض وهب ، وتابع الضابط :

— لقد عرفت بلا ريب ما يجب أن تفعله .. وأنا واثق من أنك  
أدركت خطأ موقفك ..

استمر الصمت . بدا كأنها الرائد ينتظر أن يتفوه وهب ،  
— مستقول لي الان من الذي كان معك في الفرقة .. ومن  
المسؤول .. بالاحرى تحدث على هواك .. قل كل ما يخطر لك  
وسأصفي الى اي حرف تنطق به ..

عرف وهب أن الصمت لن يستمر بعد .. وعز عليه أن ينتهي  
الهدوء القائم ، ويخيب تفاؤل الرائد ..

— لقد قلت أمس أنني لم أكن مرتبطاً بأحد .. وها أنا أؤكد  
مرة ثانية .. صدقتني أنني كنت أعمل وحدي ..  
لم يفلح الرائد في اخفاء مشاعره ، على الرغم من انه انحرف  
بوجهه بعيداً .. قال :

— هل كنت تطبع المناشير وحدك وتوزعها وتعتقد الاجتماعات  
و .. و .... وأشر بيديه . قال وهب :

— لم أطبع مناشير ...

قاطعه الرائد :

— ولم توزع ؟

( صمت )

— من أعطى عابد منشور ( الصاعقة ) .. ؟  
أنكر وهب ، فاستدار اليه الرائد بجمعه ، وقال بلهجة  
عدوانية تماماً :

— يا بليد هل تعرف أين هو مسعد الآن ؟

اغتم ، واضطربت شفتاه ، ورف بصره حتى وقع على مكتب  
الرائد .. وأوشك أن يلتقي بتحديقة عبد المنعم المفيضة .. ولكنه  
لم يتكلم .. أرف الرائد :

— لقد اعتقلوه منذ شهر ..

قال وهب في سره : لماذا لم تقل المنظمة ذلك .. ؟ أنت كذاب ..  
هل تحاول أن تتسلل أيضا الى حصني الداخلي .. ؟ قال الرائد :  
هذا لا يهيك .. هه .. ( يبدو انه كان قد قال كلاما آخر لم  
يسمعه وهب ) .. وسريوهي .. من هي هذه الفتاة .. ؟ ماذا تعرف  
عنها .. ؟ لن تنكر هذه المرة ..  
قال وهب : لا أعرفها البتة .

وجم الرائد قليلا ، وقد تحسس اهانة لا تحتفل يلحقها به هذا  
الوغد انذي يتشبه بالصخر .. اية أسطورة تحكم رأسه المنخور ؟  
كان قد كابد صبرا مرا وهو يغل غضبه ويلجم غيظه .. سأل وهبا  
وهو يهز رأسه :  
— لماذا تخرب حياتك على هذا النحو .. لماذا تخرب حياة  
أهلك ومدينتك ؟

آثر وهب ان يتلفظ بكلمة .. قال :  
— أنت تعرف ..  
قال عبد المنعم :  
— هل تريد أن تسقط السلطة حقا ؟ أنت تناضل وحدك اليس  
كذلك ؟ اليس من حقي ان أحيلك الى مستشفى المجانين اذن ؟  
قال وهب وقد رغب في الحديث :  
— ليس اسقاط السلطة .. ( ويمد تردد ) ..  
ولست وحدي ..  
ابتسم الرائد وقال :

سه حسنا .. واحدة واحدة .. ليس اسقاط السلطة .. ماذا  
اذن ؟

قال وهب : ثمة فساد كبير في كل مكان من هذا البلد ..  
قال الرائد ساخرا : وهل أنت من سيفجر هذا الفساد .. ؟ أنت  
المشرد الضائع العاقل الفقير المحوس .. ؟ دعنا من هذا .. لست



وحدك قلت .. هه ؟

ضحك وهب في سره ، وقال :

— كثيرون هم الذين يمتقنون الفساد وكل الذين يؤذيهم يرغبون

في ان ينهوه ..

سال الرائد :

— والذين يريدون اسقاط السلطة ؟

قال وهب ، وقد احس ان عليه الا يتمادى في الحديث اكثر :

— ايضا ..

— وما ادراك ؟

تلون صوت وهب على نحو خاص واتجه الى الرائد :

— كيف تريد ان يكون من لا يشيع ولا يتعلم ولا يامن على ...

قاطعه الرائد محتداً ومتمعضاً :

— كفى كفى .. لن تلقي علي درسا .. هه .. ؟ لماذا اللف

والدوران .. ؟ من معك سيسقط السلطة يا سيد وهب .. ؟ هذا

هو السؤال ..

اطرق وهب برهة ، ثم قرر ان يقذف بالكلمة النهائية :

— لقد قلت لك انني اعمل وحدي ..

صمت الرائد ، ثم ادار كرسيه ، وحك قذاله ، ثم ضغط زر

جرس احمر ، فدخل رجلان لم يرهما وهب من قبل . قال الرائد :

— هذا المعتوه يستحق ان توصلاه الى مستشفى المجانين ...

— ١١ —

— منذ متى لم تضاجع يا ولد ؟

سأله أحد الرجلين ، فاجاب عنه الرجل الاخر :

— سيقاومك الان .. دعنى اليه قليلا ..

لم يفقه من الحديث أكثر من أنه مقبل على وجبة جديدة ..  
بأمرهما دلف الى غرفة صغيرة ، متسخة ، فيها حنفية ماء ومجلى  
وسوط مرمرى في وسطها .. قال له أحد الرجلين :

— انزع ثيابك .. تعر كما جاءت بك العاهرة ..

تردد في أن ينفذ . غاب الرجل الآخر قليلا ، وعندما عاد ، رآه  
وهب يدمج دولابا من الكاوتشوك ، ويجر بحذر شريطا .. لم يبق  
فوق جسده غير السروال الداخلي .. هل يريد أن يخلع هذا أيضا .. ؟  
مد الرجل يده الى السروال ونزعه بجرة واحدة ترنح لها وهب ثم  
حاول أن يستر عورته وأصابه البله .. لماذا يفعل هذا المجنون ذلك  
كله ؟ سمع من يسأله :

— أيها تختار .. الدولاب أم هذا — وقذف بالشريط أمام

عينيه — أم هذا .. ؟

لم يفهم الاختيار الثالث .. عيناه كانتا مسمرتين بالبلاط القذر

.. سمع من يقول :

— دعه يجربها جميعا قبل أن يختار .

نوى أن يخبرهما أنه عرف الدولاب والشريط .. ولكنهما ادخلاه  
بهمة وسرعة في الدولاب ، وانصرف كل الى أمر .. السوط الذي  
فرخ والقدمان والظهر والصدر والوجه والآلية العارية .. تسائل  
ان كانا مصابين بالسعار .. وأراد ان يتابع العناد فأعجزته النار  
والقهر .. وعندئذ صرخ .. صرخ وقذفهما بكل ما وصل الى لسانه ..  
فقهقها .. وأصاب السوط عينيه .. ونالت الخيزرانة شفته السفلى  
فتسرب الدم الى حلقة .. بصق في وجه أحدهما ، فاتهالت زخات  
مسعورة فوق كل ناحية من جسمه .. وتفجر الدم من غير الشفة ..  
وطال الانتظار قبل أن يهدأ غيظهما لفعلته ، فعادا يركزان ( فقط ) على  
قدميه وظهوره .. أما هو فكان قد رآهما يتكومان تحت قدميه ،  
فيدوس فوقهما ، ثم يطير الى العالم الذي تختفي فيه الأسواط

والاشربة والدواليب ..

قال حامل السوط وقد كف وتنهد :

— احسبه قد مات يا رجل ..

ضحك زميله ، وكف أيضا ، ثم اوما الى السلك الكهربائي  
والحنفية وقال :

— ايقظه ..

رفض وهب ان يستيقظ .. ارعشته الكهرباء وتقاذفته انحاء  
الغرفة ولكنه ظل غائبا .. ركب الهم الرجلين فوجها .. ثم حبلاه  
الى مقربة من الحنفية ، وصوبها ماءها فوقه بعنف واضطراب ..  
واستمر ذلك زمنا حسبا دهرًا ، قبل ان يرتجف جفناه ، ويفيق .  
هللا له ، وشتباه : ثم شرع احدهما يخلع ثيابه ، فقال الآخر :  
— لقد لان زيادة عن اللزوم .. ما رأيك في ان تؤجله الى  
مناسبة اخرى ؟ ..

فسمع وهب قسما عظيما وحارا ، وتصميما حديديا على  
المتابعة ... لم يستيقظ تماما الا عندما ابصر الرجل العاري يقترب  
منه ، ويبد يده الى قفاه ..

— انت لواط ابن لواط .. حتى امك كانت تلوط بك ..

اراد وهب صادقا ان يدفع الوحش لكن المعجز غلبه .. لم  
يستطع ان يأتي حركة .. تألم واحس انه يعامل كحيوان ... وراى  
بينه وبين العالم ثقب ابرة فقط ، ولا مناص له من ان يلج .. ولج ..  
وتمزق ..

## الفصل الثاني



استغرقه الجديد .. تعتمد أن يكون ذلك .. راح يمارس سياسة التبلد التي اعتمدها في أيامه الأخيرة في القبو .. لقد حققت له تلك السياسة نجاحات باهرة .. جرد الأيام والعذابات والسلطان من الهيبة والأشواق .. لم يمد أي منها يخز .. لقد نأى القبو الآن .. أما هذا السجن ، فقد عرف منذ زمن بعيد أنه يقوم في منتصف الطريق إلى قمة الجبل .. كم عاين السجن في الماضي .. كان يقيس بناظريه المسافات من الأوكار البشرية التي تتسلق الجبل إلى السجن ، ومنهما إلى القمة التي عشق .. كان يخمن أن بشر تلك الأوكار يتسامرون في الليالي الحاملة مع صراخ رفاقه وأناتهم الهاربة فوق الأسوار .. غرف القبو كانت اقتسح ، ومع ذلك ، فقد استوى لديه الإحساس بالحرية هناك معه هنا في النزل الجديد « سألعل

أبو ريحة « (١) حاول أن يلتهم ، وهو يعبر ممرات السجن وأقسامه كل ما تراءى لعينه .. لكنهم لم يدعوه يفعل .. كانوا على عجلة من أمرهم .. لم يقض في مكتب رئيس السجن عشر دقائق .. كانت الزنزانة تنتظر .. ولقد اعترف لها فور ما ضمته انه حالم بها منذ عهد غير قريب .. واقسم على أن نور لم تنسه اياها وانه كان يسأل عنها الرائع والمغادي .. وتمنى أن تطيب لهما العشرة افضل مما كان له مع غرقته في القيو ..

كانت عيناه قد وقعتا اول ما استقر داخل الزنزانة على الفتحة الصغيرة القابعة في الزاوية اليسرى شرقا .. لقد عطرت أنفاسه منذ اللحظة الاولى .. فكر في أن يتعد عنها ، لكنه فطن مباشرة الى أن الامتار قليلة هنا ، فقرر أن يتجاهلها .. دار حول نفسه ، ونظر الى الباب .. كان الشرطي قد أرخى المزلاج ، وذهب .. سمع وقع خطواته المبتعدة ، وانصت اليها ... الا أن الصوت لم يلبث أن تبدل ، وأخذ يقترب ، فزاد وهب من أنقباهه ، حتى تأكد أن الشرطي عائد .. ومر الرجل فعلا أمام باب السالول .. لم يطرق ، ولم يمد مفتاحا ، ولم يطرף عينا .. لمح العمرة من فتحة الباب ، وهي نافذته الوحيدة ، على العالم ، الا أن تعد فتحة المراض .. أخذ الشرطي يروح ويجيء ،

---

(١) كانت ززنانات السجن الذي نزل فيه وهب ، بعد أن نقل من القيو ، ذات أسماء ومواصفات عديدة . « سالول أو ريحة مثلا » اسم الزنزانة التي يكون على السجن أن يتبرز أو يتبول فيها ، وهي متصلة بالمجاري العامة بفتحة تكون في إحدى زواياها وتظل مكشوفة .. « سالول القبر » اسم الزنزانة في الطابق الارضي من السجن ، حيث يحرم الدخول على الشمس أو الهواء ، والمراض في هذا النوع ليس في الداخل . ومما هو جدير بالإشارة أن السجناء هم الذين اطلقوا هذه التسميات ...

وأخذت خطواته تتباعد وتقترب .. حسنا يا عزيزي .. سيكون هذا مسليا .. سوف أخلل وقع كل خطوة ... وسوف أعد وأحفظ ، ولن أسأم حذاءك العظيم .. وضحك .. أمعن في الباب ، واتسعت ضحكته كل هذه الضخامة من أجلي .. العوارض الحديدية ، والاطباق الخشبية الغليظة ، والزلاج الهائل .. وكل المرات الضيقة والحراس والاسوار من أجلي .. رائع حقا .. لم اكن أعلم أنني عظيم بهذا المقدار .. الآخرون الذين تعمر بهم كل الزنانات في هذا السجن لهم أيضا مثل هذا .. فكر : كم هي عظيمة تلك المنظمة التي تبذل لها السلطة ذلك كله .. وسرح الى السجون الأخرى ، والأجهزة العديدة ، فتضاعف الاحساس بالعظمة ، ووقعت عيناه على كلمات مشوهة محفورة قرب الباب في اسمنت الجدار اقترب منها وحاول أن يفك الرسم فلم يفلح .. راح يبحث عندئذ عن رسوم أخرى ، فهاهنا أن رأى مدا من الاسماء والتواريخ المترامية أو المترجة .. صفق لكل الذين سبقوه .. حياهم ، وأكد لهم انه سيحفر اسمه أيضا قبل أن يبرح هذا المكان .. وداعب أهدجيوه على الرغم من انه لم ينس بعد انهم فتشوه جيدا في مكتب رئيس السجن ، وأخلوه أخلاء دقيقا من كل ما يلزم أو لا يلزم .. ثم قفز الى جدران القبو .. ان اسما واحدا لم يقرأ هناك .. ولا تاريخا .. في الصالون ولا في المرات ولا في غرف التحقيق أو الحجز أو التعذيب .. وأسف لذلك .. القبو خطوة أولى .. تطلع في أظافره ووثق من انه سينقش هنا اسمه وتاريخه ..



.. من الحق أن يعترف أن ثقته أخذت تتضاعف في أيام القبو الأخيرة وقد هيا له ذلك لذة افتقدها منذ زمن .. كان الاعياء قد هذه .. وكان السقوط قد أخذ ينفذ الى مقتلته وحبسة قلبه .. قديما



ضاعتا .. لم يفقد القدرة على السير فقط .. لقد غدا عاجزا عن الحراك بتاتا .. جره الحارس ثلاث مرات الى المرحاض .. منذ الليلة التي دنسوا فيها انساتينه ، ومارسوا حيوانيتهم في جسده شرع يتراجع .. شفتاه ظللتا مطبقتين .. أجل ، لكن جسمه أخذ يهون .. كان قد حسب أنه خرج من المحنة سالما قبل ذلك .. ألم يجرب كل فنونهم .. ؟ كان قد تصور أنه مدلهم حبلا كافيا من عناده لينشلقوا به .. وانه اكتسب مناعة حصينة .. وصار قادرا على أن يمضي بين أيديهم كل السنوات اللازمة لموتهم .. لكن جسمه أخذ يهون منذ ليلة أولجوه ثقب الابرة .. في الصباح الذي أعقب تلك الليلة أبصر لطعات دموية عديدة على الأرض تحته ، وإلى جواره .. خمن أنها من آثار أمسه .. وقال له الحارس وقد رمقه بنظرة خاصة : انك تنزف .. لم يشأ أن يهتم في البداية .. حتى بعد أن اكتشف النزيف في باطن قدميه . كان الخيط الأحمر المنسل من الجلد المهترئ المتورم نحिला ومتقطعا .. بعد الظهر قال له الحارس أيضا : انك تنزف .. وأحضر له بطانيتين عسكريتين ، وطلب منه كل النقود التي يحملها حتى تؤمن له الرئاسة طعاما منتظما .. شكرهم على رعايتهم الحنون .. وتيقن من أنه سيقضي أياما طوالا في القبو .. لم يشفع له نزيفه .. ولا هزاله الذي كان قد أخذ يبصم عينيه وبشرته وأوصاله وصوته .. ألوجبة التالية — والآخرى — شققت باطن قدميه وقطعت الجلد .. صار اللحم المهروس باندم يتناثر في كل مكان .. حتى فوق أرنبه أنفه رأى نثرة تسقط .. ولم يسعفه .. قضى ليلا آخر ينزف .. والخيط المنسل اكتسب قواما صحيحا ، ولزوجة خاصة بفضل اللحم الذي طبخ جيدا .. عندما رآه الحارس مرة أخرى لم يقل له شيئا .. غاب وترك الباب مشرعا ، ثم عاد بمسؤول جديد .. ثم غاب الرجلان ، وظل الباب مشرعا أيضا حتى عادا رجل وأثناء وحقبة صغيرة .. عندئذ أدرك أن الأمر صار خطيرا .. وانه

استحق الاسعاف أخيراً .. كان الهزال قد اطبق عليه .. وكان  
اليقين في تجاوز المحنة قد ترعزع .. شك في أنه استطاع أن يقهرهم ،  
أو يتفوق عليهم ، أو يصنع لهم حبلاً .. قال : ان كل ما قرىء أو سمع  
ليس كافياً .. فدائماً تكون مع الممارسة تجليات جديدة .. وقرر أن  
يستسلم لمصيره ، ويرخي الشراع للعاصفة .. وقد طال به زمن  
التأرجح .. وظل المرض — أو الطبيب : لم يدر — يرتق فتق قدميه  
ثلاثة أيام وينتقمهما بالمحاليل .. سأله الحارس عن نقود أخرى فما  
وجد .. لم يصدقوه .. نقبوا ثناياه فعثروا على محفظة النقود  
الخاوية ، هدية نور في بيت أم صفوان .. أخذوها ، على الرغم من  
أنه أراد أن يحتفظ بها بكل قواه .. قادت المحاكمة المنطقية الى  
الاعتقاد بأنه سيتخلون عن أطعمته ، ولذلك دهش اذ رآهم يجودون  
عليه بسخاء حقيقي .. ويبدو أن فرقة التعذيب قد نسته ، أو تناسته ،  
مؤخراً ، فتقدم بطيئاً نحو الشفاء .. وبعد أن ظل مقعداً سبعة أيام  
استطاع أن ينهض — بمفرده — وأن يسير الى المرحاض ، كما تمكن  
من أن يقطع عشرين خطوة داخل الغرفة وفي ذلك اليوم فكر في قرار  
الانقياد للعاصفة ، والاستسلام للمصير ، فهذا منه ، ولام نفسه  
وضغفه .. ولم يشمخ برأسه وبنقته ألا بعد يوم آخر .. وما أن ابل  
تماماً ونظر في موقع قدمه حتى أدرك أنه دخل مرحلة جديدة .. لقد  
انتهى الاعياء والوهن والاختبار .. قص على كل الاسماء التي رآها  
منقوشة في جدار الزنزانة حكاية عذابه ، ووهنه ، وثقته المتناحية ،  
وأعترته سعادة وطبائنية لان قصصا كثيرة ، أروع مما حكى ألف مرة ،  
أخذت تسرد على مسمعه عن أقبية أخرى .. وأناس آخرين من  
أفواه النقوش التي تتوهج في قلب الاسمنت ..

## — ٢ —

عانق وهب صباحه الأول في سالول أبو ريحة مشرع القلب ،

ضاحك العينين .. أخذت الغبطة تتسلل الى صدره منذ أن افترق جفناه .. وعندما كان يتمطى ويتأهب ، ويدعك جفنيه ، كانت هناءة حقيقية قد استولت على كيانه .. لم يكن الهدوء الذي ساد نفسه معجزة .. لقد أراده : وقصد اليه ، وفي القبو تعذب من أجله ، وقبل القبو افترقه خمسة شهور طوال .. انه الان أكثر استقرارا منه في أي يوم مضى من أيام رحلته الشاقة الطويلة .. كان قد خلع في احدى ساعات الليل الاولى قميصه الداخلي ، وكوره ، ثم سد به فتحة المرحاض .. ولقد ابتهج نصنيعه هذا بعد أن استراحت خياشيمه من الرائحة التي كانت تجود بها الفتحة .. أما حذاؤه فقد كان خير وسادة .. تحت البطانية السفلى — ناحية الراس — وضعه .. كان ثمة بطانية افترشها وأخرى التحف بها .. لم يهن أمام الصقيع كما في ليلة القبو الاولى .. في اول الليل أخذت تتردد في أنحاء السجن صيحة وحشية ( جاهز ) تتجاوب اصداؤها من شرطي الى شرطي ومن زنزانة الى زنزانة ومن صدغ الى صدغ .. ابتسم وهب للصيحة وتذكر نصل الصوت ونصل الضوء .. وحار في أن يقرر أي اللطيفين اكبر ..

كانت ساعته تشير الى السادسة . سمع لأول مرة بعد أن استيقظ — أقدام الشرطي فرشى لهذه الاسطوانة . لقد قال لامه — وكنا معا هذه الليلة — :

انه لا يحقد على هذا الشرطي .. كما لم يحقد على حراسه هناك .. سألته عن الجلادين فلم يجيبا .. كانت تبكي كهمده بها في كل الاحلام .. خمسة شهور وهي تبكي .. مسعد فر ، ووهب فر ، والجلادون يؤذون الاب المسكين .. لامها اليوم بخاصة — وكان قد فعل في الماضي ايضا — وتمنى ألا يراها في حلم جديد ، على اشتياقه ، ان كانت ستيكي .. كان يعلم أن الوقت لا زال مبكرا .. وكان ينوي أن يتابع أحلامه واستمتاعه .. لكن أنظمة السجن الحديدية كانت

تقرض عليه أن ينهض .. خاطبه الشرطي وهو يطرق بقدمه الباب  
الغليظ :

— استعد لتذهب الى المفصلة .. دورك بعد قليل ..  
وقف وهب على رؤوس أصابعه وهو يتمطى ، واكتشف أن  
سقف الزنزانة جد خفيض ، فقد كاد أن يلامسه برأسه ، على الرغم  
من أنه ليس من المعدادين في الطول .. وقبل أن يجمع البطانييتين  
اعترض عينيه الكنار البني الذي يقارب سقف الزنزانة . مسح  
بسبابته قليلا ، وتراجع أمام كرة سوداء من جثث البعوض تكونت  
على طرف أصبعه ، فمقذف بها عدة مرات حتى يتخلص منها ..  
واستغرق في ضحكة عالية .. أنه فح البعوض اذن .. يدهنون من  
بقايا المرببات قرب السقف شريطا عريضا .. ، أو قل يحفرون  
خندقا واسعا يصد هجمات البعوض المتواصلة ، والشرسة ..  
البعوض سمر الليلي في سواليل أبو ريحة .. ولولا الكنار البني  
لكان يحرم النوم على السجين .. كرر وهب اعجابه لمكتشف هذا  
السلاح العظيم .. لقد تفرج ، وهو مستلق ، أول ليلة الماضي ، على  
جموع البعويض تظن وتروح وتجيء وتظل هناك .. في السقف ..  
لم تنزل اليه ، فمتعجب .. وحمد في سره انها لم تفعل . انتزعه صوت  
الشرطي من تأملاته :

— امش يا أفندي ..

لقى تحية الصباح على حارسه ، وأردفها في سره « من يدعي  
أنكم تهينوننا ؟ .. »

ها أنت تخاطبني بالافندية ..

— من هنا ..

علمه الشرطي برأس سلاحه . كان عليه أن يستدير الى  
اليمين .. استاء لانه يسير تحت رحمة السلاح .. لم يكن موضع  
الاغتسال بعيدا عن الزنزانة .. ثمة صنوبر واحد ، أصفر ومخدوش

.. تخرب نحاسه .. وهناك ميسولة ، ومرحاض ليس له باب ..  
انتحى الشرطي جانباً وادار ظهره ، وقال :

— تستطيع ان تقضي حاجتك .. هيا لا تبطىء ..

تحرك لسانه في صدره : في القرى يقضون حاجاتهم في  
العراء ايضا .. الا انهم لا يكونون تحت رحمة السلاح والمراقبة ..  
ولا قيد أو انتظار .. حرنت أمعاؤه .. لم تتشأ ان تتحرك على مرأى  
الرجل الغريب .. أنصرف الى الاغتسال منزعجا ، وأراد ان يسأل  
الشرطي عن مواعيد الخروج التالية .. وقعت عيناه وهو على وشك  
أن ينتهي على عقب سيجارة طويل ، فتطلع اليه مليا ، وعد الايام  
التي لم يدخل فيها سيجارة واحدة .. حتى العقب لم يتح له ان يراه  
خلال تلك الايام .. تردد قبل ان يقرر اختطاف العقب وأخفائه ..  
وعندما عاد الى الزنزانة وسمع قرقرة المزلاج ، وصوت قدم الحارس  
يبتعد ، هرع الى ريح التبغ .. داعبه وشبهه ثم فتح الغلاف ، وأراد  
ان يعيد لفيه .. وتانى في ذلك طويلا .. ولم يظن الى انه لا يملك عود  
ثقاب الا بعد أن انتهى .. وفيما هو يزدد الحسرة والخيبة باغته  
صوت الشرطي :

— من أين حصلت على هذا ؟

التفت الى الكوة فزعا .. لم تكن ملامح الوجه السائل عدائية  
.. قال وهب وهو لا يزال متأثرا :

— من هناك ..

وأشار الى مكان الاغتسال .. قال الشرطي :

— هذا ممنوع في السجن ..

أطرق وهب ، وفكر في أن يمد يده الى الشرطي ما دام الامر  
ممنوعا .. إلا أن صوت الشرطي سبقه :

— خذ هذه ... دختها بسرعة ثم اخف آثارها في فتحة الزاوية

.. ان ضبطوا أي أثر لها ستجأى شر جزاء ..

عقدت الحيرة لسانه .. ألتدخين ممنوع في السالول .. أين  
هي سيجارة الرائد عبد المنعم المفلترة والاجنبية ؟ الشرطي يمد أصبعه  
من الكوة بسيجارة مشتعلة .. لا ليحرق زندي ..  
واشتهأؤه للتبغ لم يكن يوما أكثر منه حرارة الان ...

### - ٣ -

رمى السجين عيني وهب بنظرة نافذة ارتدتا لها .. الباب  
وحده يفصل بينهما .. والاخر في الخارج .. عدا ذلك تستوي  
الاشياء . الشرطي في احدى النواحي التي لا تظهر لوهب من موقعه .  
— ما اسمك .. ؟

ساله السجين وهو يناوله اثناء صغيرا ، مزج فيه قليل من الارز  
مع حساء البطاطا .. فلم يجبه ، السجين الذي جاءه بطعام الصباح  
لم يساله .. قال له فقط : لن يتأخر دورك في خدمتنا .. الادارة هنا  
ذاتية .. وأعقب جملته الوحيدة بابتسامة بائسة ..

— أسرع وقل .. لن أستطيع أن أطيل الوقوف ..  
لفظ وهب اسمه وهو يزداد اندهاشا .. ولمعت في خاطره  
صورة الحبيرة الشرقية التي تلح على حبيبها أن يسرع ، فهي لا  
تستطيع أن تقف معه أكثر ..

— متى جئت ..

أجاب وهب : أمس .

— لماذا جاءوا بك ؟

سأل وهب : هل ستحقق معي ؟

قال السجين عجلا : ألا تريد أن تتعرف على اخوانك .. ؟ هل

تفضل أن تعترل في هذا القبو .. ؟

قال وهب : ما اسمك أنت ؟

أجاب السجين : كنان .  
سأل وهب : ولماذا جاعوا بك ؟  
قال كنان : اتهموني بالتخريب .. وانت ؟  
سرى عن وهب قليلا وقال : كذلك ..  
باغتهما صوت الشرطي : هل تصلبت عندك يا طسم .. ؟  
قال السجين وهو يغادر متظاهرا بالتعجل :  
— سأعود بعد ربع ساعة لأخذ الاوعية .. حضر كلامك حتى  
لا يضع الوقت ..

وضع وهب الإناء على الأرض ، وتربع أزاءه فوق البطانية  
المرتبة .. فكر في السجين كنان .. تساءل ماذا يكون اسم السجين  
الذي جاءه هذا الصباح .. ؟ وهل سيتجرا هو على أن يحدث الآخرين  
لغدا عندما يحين دوره في الخدمة .. ؟ ثم تبسم لذكرى الإدارة الذاتية ،  
وخف اضطرابه ، فاقبل بشهية على الحساء البارد والأرز الذي يعج  
بالحصى .. وتلذذ بتنايف اللحم التي تتعثر بها ملعقته في أنحاء  
الإناء .. وما كاد أن ينتهي ويمسح فيه بباطن بقايا رغيف الخبز ،  
حتى سمع صوت كنان :

— أما انتهيت .. ؟

قفز وهب هاشا فبادره كنان :

— تظاهر أنك لم تنته بعد .

قال وهب مباشرة وبصوت مرتفع :

— انتظر حتى أكمل هذه اللقمة ..

قال كنان : أنت شقيق مسعد اذن ؟ كنا معا في قبو الملكية ..  
لقد عرفك جارك هناك ( وأشار الى الزنزانة التالية ) فور ما ذكرت  
اسمك .. كانت أخبارك تصلنا قبل أن يعتقلوك .. لقد اعتزنا حقا  
بصمودك .. عابد خوكم وسينفذ الرفاق الحكم بحقه قريبا لكن اسمع  
ما هو أهم .. هذا خبر جاعنا صباح اليوم .. سريوهي مختطفة ..

اذاعت المخابرات في الصحف والراديو أن المنظمة اختطفتها .. رفائنا  
يشكون في أن تكون لعبة للمخابرات .. سربوهي لم تظهر منذ سبعة  
أيام .. هات اناءك الآن .. كانت عينا وهب تتلقفان كل كلمة يلفظها  
كنان بلهفة وحرص .. ولم يصح الا على صوت أعلى يطلب الاناء ،  
فسلمه وهو ذاهل ...



سربوهي مختطفة ..  
استولى الصدى على مسامعه ، وملاً الزنزانة أيضا .. أهتز  
كيانه .. سيكون الامر قد وصل بطغيانهم الى هذا الدرك ؟ كانت  
سربوهي على وشك أن تلتحق بنا في المخابيء والنضال السري ،  
فهل نراهم قراوا ما كانت ترسم .. ؟ هل وشى بها عابد آخر .. ؟  
عابد هاهي — يعرف — انه لم يكن بعيدا عنها .. كان يعيش معها  
تحت ستف واحد .. انه شقيقها الاصغر ( روبين ) وعدوها اللدود ..  
كان لا يفتأ يهددها بفضح سرها .. وكانت سربوهي تؤكد أن  
وجودها كاملا للمنظمة .. كم تملى أن تكون نور في هذا مثل  
سربوهي ..

سربوهي مختطفة .. ؟ ليت أن كنان لا يصدق .. بيد أن الانباء  
التي تأتي الى الرفاق في السجون يجب أن تكون أكثر الانباء تأكيدا ..  
اتراها أحدى لعب المخابرات التي راجت في الاونة الاخيرة ؟ .. هل  
أرسلوا اليه بكنان .. ؟ أم انهم يلعبون به وبكنان وسربوهي معا ..  
شقيقها اللعين يعرف كثيرا من الأسرار .. وان اختفت فسيقتد مع  
المخابرات صفقة ، سيقول للناس : من أجل أختي أفعل .. كانت  
سربوهي أنشط اعضاء الاتصال في المنظمة .. كانت تعرف نصف  
المخابيء السرية في هذه المدينة على الاقل .. التقي بها في بناية  
عوية وفي كهف الاحتياط رقم ( ١ ) ، وفي اخر مخبأ نزل فيه في بناية



شورى .. احس بالحاجة الى ان يعود الى ذلك كله .. لم يكن في  
بناية عويرة سوى غرفة واحدة جاهزة للسكن .. من طابقها  
السادس الى قبوها كانت تنتظر الاسمنت والابواب واشياء أخرى  
قبل ان تفتح فراعيتها للناس .. ومع ذلك فقد نقلت اليه سربوهي  
أول أيام الاختفاء أمرا بالتوجه الى حارس العمارة . كان الرفاق  
قد اتصلوا به واتفقوا معه على ايواء ثلاثة طلاب جامعيين مقابل  
أجر زهيد .. وكانت المفاجأة المذهلة أن مسعد أخاه كان أحد الثلاثة  
.. كان عليهم الا يظهروا في النهار .. امتحاناتهم ليلية ... وثلاثتهم  
من الذين اختفوا مجدداً .. وعيون الكلاب ترصد الريح الذي يحمل  
أنفاسهم .. كانوا يطلبون الى الحارس أن يحضر لهم ما يقيمون به  
أودهم .. وكانوا يدعون الانشغال عن الدنيا بالدراسة ، والفقر ..  
بعد أيام جاءتهم سربوهي باذن الخروج ، وبتوصيات أخرى .. كان  
اتمسع الثلاثة في الأيام الأولى .. شقيقه ، ورقيقه الآخر ، سبقاه  
الى هذه الحياة ، وألغا الساعات الطويلة الفارغة ، والجوع ،  
والصبر ... على أنه تعود سريعا .. ولولا نور لكائن أشجانه  
قد هدأت منذ جاء أذن الخروج .. انقضى موسم الجامعة .. وامتدت  
الاقامة ايها أخرى ، راح الحارس بعدها يتساءل : لماذا لا يذهب  
أولاء الى بلادهم وذويهم ..؟ هل ييسر لهم فقرهم أن يقيموا في المدينة  
لغير ما سبب ؟ وقرأ مسعد الشكوك في عيني الحارس ، واستعجل  
سربوهي ، حتى اذا قدمت ، كانت معلوماتها هي الاخرى تؤكد أن  
البنية قد صارت مراقبة .. وان الحارس لم يعد مأمون الجانب ..  
وقالت انها ستعود بأوامر جديدة في غضون ساعات .. ولكنها غابت  
يوما آخر كان من أقسى أيامهم .. كانوا ينتظرون أن تداهم البنية  
في كل لحظة .. ولم يتصلوا طيلة ذلك اليوم بالحارس .. الا أنه  
جاء اليهم دونما طلب ، وعرض الخدمة .. وفي الصباح الباكر هرعت  
سربوهي اليهم بأمر التوجه الى كهف الاحتياط رقم ( ١ ) .. وهناك

علموا ان المكان الذي يرحوه قد دوهم بعد ساعات ، وان الحارس  
لمن فطنته وحظه ..

وفي كهف الاحتياط رقم ( ١ ) تفرق الجمع .. وانتقل وهب الى  
بناية شورى .. ثمة خلية كاملة .. ويبدو أن المكان كان آمنا .. وان  
عيون الكلاب قد عميت ، اذ سمح له بقضاء المهات النهارية والليلية ،  
وضربت له مواعيد مع مسعد ، وتعود الحياة الجديدة الخطرة ..  
ولم يحزن الا من أجل نور .. لقد التقت بها سربوهي ، وجاعته بريحتها  
مرتين .. وفي كل مرة كانت رسالة وقبلة ، وأمانة سربوهي ..  
أتكون الخلية قد انكشفت كاملة باختطافها ؟ أي مأزق يكون رفاقه  
قد وقعوا به ؟ أن المنظمة تمنى بخسائر متتالية .. ( يجب أن أعترف )  
لقد قبض على مسعد . وعلى كثيرين غير مسعد .. ثم جاء دوره ..  
ودور سربوهي .. وقبيلهما سقط غنيم وسقط آخرون من القياديين  
ومن سواهم .. ( لو سألت كنان عن عدد الرفاق داخل هذا  
السجن .. ) لكنه لم يتصور هول الخسارة الا عندما قال كنان :  
( سربوهي مختطفة .. ) متى يعود كنان ثانية ؟ ان كل سجين يخدم  
وجبة واحدة ، فلو عرف عدد السجناء لحدد يوم يعود. كنان .. لن  
يرسلوا اليه رفيقا آخر .. ؟ لأن أنباهم كنان بأمره فستصله الاخبار  
بدءا من هذا اليوم بانتظام .. هكذا تعلم أن أجور الرفاق تسير في  
السجن .. ومع أنه اجس بالارتياح لتصور ذلك ، الا انه ظل لا  
يصدق أن تكون سربوهي آخر الضحايا .. انهم يريدون أن يشوهوا  
كل شيء .. ان تلتحق سربوهي بصفوف النضال السري فتلك معجزة  
من معجزات المنظمة .. ليس من الممكن أن تكون سربوهي قد التحقت  
بالمخابيء فتمد الطغاة ان يشيعوا الاختطاف ؟ وغرق ثانية في السؤال  
عن ذلك ، وعن مراسلات السجن السرية الموثوقة ، ولعب المخابرات ،  
وانتظار كنان جديد ، والمدينة ، والمنطقة ، وقمة جبل المرام ...

على الرغم من يقينه الكامل في أن كنان لن يأتي هذا العشاء ،  
فقد كان يود أن يكذب اليقين ... وما بين الوجبتين لم يطل الزمن  
به .. غرق في يم أفكاره في البداية ، ثم نوى أن يستلقي ، فما كاد  
أن يسوي البطانية ، حتى سمع أمر الشرطي الجديد — وكانوا  
يتناوبون كل ساعتين — بالوقوف ..

وانتظر أن يلي ذلك أمر آخر ، سأل الشرطي عما يجب أن يقوم  
به ، فتلقى عشر ثنائيم ، وتأكيذا بلزوم الوقوف .. حتى على  
الشرطي ، ثم عاد فحمد له إخلاصه في تادية الواجب .. وتصور  
الشرطي الذي قدم له عند الصباح سيجارة خائناً للناموس في هذا  
القبر الكبير .. لم يكلمه السجين الذي جاء بوجبة العشاء .. حرماً  
واحداً لم ينبس .. كان متجهماً الوجه .. ولم يشأ وهب أن يفرض  
نفسه ..

ما أن تجشأ مرة واحدة ، بعدما ازدرد وجبته ، حتى سمع  
مزلاج الزنزانة يقرقع .. خمن أنهم حريصون على نظافة السجناء ..  
وان الشرطي سيقوده إلى المغسلة التي زارها هذا الصباح .. وكاد  
أن يجزم بذلك عندما رأى الشرطي يقوده عبر الممر نفسه .. لكنه  
ما كاد أن يتجاوز المغسلة ، ويدلف إلى ممر أضيق ، وأكثر ظلمة ،  
حتى أيقن أن الأمر ليس كما حسبه .. اثر أمتار أنفضى به الممر إلى  
فسحة تغص بالرؤوس الحليقة .. مد يديه إلى شعره بتلمس ..  
حزر أن هذه الرؤوس لمساجين مثله .. تركه الشرطي بيئهم وغاب  
في باب جانبي .. هس له الآخرون بمسألتهم المرحبة ، والمتسائلة ..  
هذا توتره قليلاً .. ألا أن فضوله ظل كبيراً ..

— إلى أين ؟ هل من يعرف .. ؟

اقترب منه سجين ذو شاربين كثين ولحية خفيفة ، وأسر في

أذنيه :

— الى المهجع الخاص في الطابق الارضي .. أين كنت قبل الان ؟

قال وهب : في قبولا أعرف اسمه ..  
قال السجين : هل تذكر ما لقيت هناك .. ؟ الان سترى تحت ..  
تلقوا امرا بمتابعة السير واحدا واحدا ، فانساعوا ، وسار  
وهب حلقة في هذه السلسلة البشرية الطويلة ..

هبطوا فوق درج حاد وضيق وكاد وهب أن يتعثر .. تذكر  
الدرج الذي صعد عليه أمس الى الزنزانة .. هل يكون نفسه درج  
اليوم ؟ في الطابق السفلي عبروا ممشى فسيحا ومضاء ، ورأى وهب  
على جانبيه صفا طويلا من الرجال الذين يرتدون بزات رسمية . لم  
يكن باديا على ملاحظهم أنهم يبيتون نيات خاصة .. تلقى أولهم رأس  
السلسلة فتذفقه بلبطة في خاصرته سلمته الى الرجل الثاني .. أخذ  
وهب تاما بالمشهد حتى كاد أن يتوقف لولا أن السجين الذي يقف  
خلفه قد حثه .. لقد بدأ له أن الممشى جد طويل .. وتساءل ان كان  
عليه حقا أن يتحمل هؤلاء الجلادين جميعا .. ان السجين الاول  
يتطاير من بو طالى جدار الى بو ط الى جدار .. في القبو لم يزيدوا على  
ثلاثة اها هنا !! .. ومضى في رأسه الشارع الاخضر .. أين سمع  
بهذا من قبل ؟ .. في الكتب أم في أحاديث الرفاق .. ؟ منذ دهور  
سحيقة اكتشف الطغاة هذه الاماتين .. أجل ، دوستوفسكي من  
قبل عبر الشارع الاخضر .. كان القياصرة ، وكانت سييريا ..  
يتجدد الشارع الاخضر على الدوام ، فلقرن العشرين قياصرته ، وعلى  
الارض أكثر من سييريا .. وفي كل مكان تقوم صنوف كثيرة من مذلي  
الانسان .

تساءل وهب ، وكان قد صار في منتصف الممشى : لماذا يشوه  
الظلم وجه الارض ألرايح ؟ معذبون وطغاة في كل زمان وفي كل مكان  
.. ألم ين لهذا كله ان ينتهي .. ؟ لم يتح له تلاحق الضرب المحموم

بعد أن يحلم بالزمان الذي يسلم فيه وجه الارض من كل تشويه ..  
وعندما وصل الى نهاية الممشى ، نسي حتى أنه يناضل مع هؤلاء  
المجاولين جميعا من أجل ذلك الزمان .

\*\*\*

تكموا جميعا في قاعة كبيرة عارية الجدران ، تتكدس في زاويتها  
القريبة من المدخل أدوات كثيرة .. كان بعض السجناء يتأوه . وكان  
القهر يتفجر من ملامحهم المكبودة .. كانت أسنان الجميع مكروزة ،  
وشفاهم مطبقة على هيئة عصبية .. ألا أن أحدا لم يكن يبكي ..  
لقد بحثت عينا وهب عن ذلك .. واستشعر هو بين هؤلاء قرة  
جديدة .. أجل .. سرت في النفس طمانينة واثقة .. لقد كانت  
الوحدة عسيرة في القبو ..

همس السجين ذو الشاربين الكئيب :

— الاغبياء ... لم يسأوا ...

همس آخر :

— ينتظرون أن يكون ذلك منك يا عزيزي ...

علا صوت السجين الاول :

— لو أن لهم من الذكاء حبة لكانوا ينفذون يدهم سلفا من كل  
الذين يجتازون الاقبية سالمين ويصلون احياء الى هنا ..  
وسمع وهب نداء خلاصا به .  
ارتجف . كان ينتظر أن يكون كل شيء من الان فصاعدا بين  
هؤلاء ..

استحثه أحد السجناء :

— أسرع .. نحن في انتظارك ..

علق آخر :

يبدو أنهم لم ينتهوا من التحقيق معك بعد ..

وفي غرفة قريبة من قاعتهم الحاشدة عرض عليه رجل مدني ،  
رقيق اللهجة :

— لا زالت قضيتك يا سيد وهب مفتوحة .. وبالتالي فإن  
الفرصة لم تفتك بعد .. من ناحيتي — وغمز بكتف عينيهِ — أكاد أشك  
في أن بعضهم يجهد من أجل أن يخلصك بسلام .. وسريعا .. انظر  
يا سيد وهب .. لقد رفضت أن تتكلم حرفا حتى الآن . اننا سنقدر  
لك هذا الوفاء ، وهذا الصدق ، أن أنت عرفت ما يجعل بك أن تفعله  
بعد ذلك .. أرجو أن تفكر جيدا .. لن أطالبك بكلام أو أسرار ..  
لن يوجه اليك من الآن فصاعدا سؤال واحد ..

واصطنع الرجل صمتا قصيرا تساءل وهب خلاله عما يريد هذا  
المحقق الخبيث إذن ؟ وعزم على أن يطبق مبدأ المقاطعة بدقة وحزم .  
تابع الرجل :

— ساهون الأمر عليك .. ان كل شيء سيسير على ما يرام  
ان أنت وقعت هنا ..

ومد يده الى وهب بعناية .. ثمة ورقة صقيلة خطت في أعلاها  
كلمات قليلة .. انها ورقة رسمية .. أمسكها وهب حذرا ، وقراها  
بلمحة ، لكنه تظاهر أنه يتبعن فيها .. واستمر ذلك قرابة دقيقتين ؛  
ثم أعاد الورقة الى المحقق ، دون أن يسأل قلبا أو يدون رسما .  
قرأ في الكلمات النزرة اسمه ، وأسم أبيه ، وسنة تولده ، وكل  
المعلومات المدنية الاخرى ، واستنتج من دقتها أنهم يعرفون حسبته  
ونسبه معرفة كاملة ..

ثم قرأ :

( أعلن وأنا بكامل وعيي ، وخريقتي ، انني أنسحب من  
منظمة ... )

أسر وهب وهو مطرق : لو وسعني أن أتهته ملء شدي ،  
لفعلت ، على الرغم من الاذى الذي اتحسس في كل ناحية من جسدي

المسكين ..

سأله المحقق مسترسلا في رفته ، ومتجاهلا رفضه :

— ماذا قلت ؟ ..

كانت كلمات وهب قليلة ، وحازمة :

— الموت أولا يا حضرة المحقق ..

ويبلاهة ، وأعصاب ثلجية ، استمع بعد ذلك الى المحقق يوعد ويهدد ، ثم كرر كلماته عينها ، بينما كانت تصله من القاعة المجاورة جلبة خاصة ، عرف فيها أن العمل قد بدأ هناك ، وأسف أسفا حقيقيا لأنه أيس بين رفاقه ..

يئس المحقق ، فقال له ، دون أن يفارق لطفه :

— هلا عدت الآن ..

وأشار صوب القاعة . نهض وهب وتملكته وهو يستدير خارجا جملة من الاحاسيس المتباينة والرعدة الخفيفة ... وقد شمع رأسه

— ٥ —

أسف وهب لانه افتقد سريعا الراحة التي أنعشته صباح

أمس ....

ونفست المراحة روحه وهو يعود الى الليلة الاولى .. لقد نام ملء ساعاتها .. واغفى عميقا .. لم يسهده طنين البعوض فوق الكنار البني .. ولم تزعجه رائحة الفتحة الخاصة بعد ان انتهت مراسيم اللقاء بينهما .. ولم يقترب الصقيع منه .. وفي الصباح تقب سعيدها ، وداعب حلما ، كأنه لم يبرح صدر امه .. اين ذلك كله من الليلة الفائتة ؟ كان عاجزا عن الصعود عندما اقتادوه في طريق العودة ... وقد كلفه العجز مزيدا من

الاذى ... ازدادت المرات ضيقا وظلمة .. وصارت الألراج اكثر حدة وارتفاعا .. وكان الشرطي الذى تولى الحراسة عقب انتهاء عملية التعذيب ، فظا على نحو منكر .. لقد الزمه الوقوف في زاوية الفتحة ، ومنعه من ان يرفع خياشيمه عنها .. كانت خشيته من أن تخون ساقاه كبيرة .. اما انفه فلم تكن له امس مثل هذه الحساسية الهائلة .. لم تكن الفتحة فواحة امس بمثل هذه الروائح .. ا يكونون قد اخذوا ينفخون فيها غاز النشادر ؟ امتنع النوم عليه .. ولم ينفع ان الشرطيين الآخرين كانوا متسامحين .. افتقد كنان بين رفاق الامس .. اتراه اتى في دفعة اخرى .. والسجين الذي جاءه بالافطار اول صباح لم يكن بينهم أيضا .. وهل الدفقات كثيرة ؟ فان كانت كذلك فمتى سيحين دوره التالي ؟ ومتى يعود كنان ثانية ويحدثه .. ؟ لم يتأكد امس مما اذا كان كل الذين رافقهم قد سجنوا لمثل ما سجن هو من اجله حقا .. السجين ذو الشاربين رفيق لا ريب .. وثمة ثلاثة او أربعة قرا في سيماهم علائم المنظمة ... لم يقطن الى السؤال عن ذلك .. بل ما ينفع ان يدعي الغفلة .. أن ارباب السجن لم يدعوا له فرصة للفطنة ولا للسؤال .. مهما يكن من امر ، لم يكن الاحساس العارم بالتعاطف والتوحد قادرا على ان يخرس كل سؤال .. ؟ فهل كل مساجين العالم كذلك ؟ وماذا عن الذين سمع انهم يتشاجرون في السجن حتى القتل ؟ نفر من فكرة التوحيد مع مساجين العالم ، على الرغم من أن النواميس لا ترضي في ثلاثة ارباع الارض .. تشبسان ملا الدنيا وشغل الناس بحبسه وعذابه ومصيره فهل يقف معه ؟ في الماضي لم يكن يستقبل هذا السؤال كسجين ، اما اليوم ..

وانتشله من دفق الهواجس القلقة المدمرة صوت سجين ينادي على كوة الباب .. من أجل الافطار .. انه وجه جديد اخر



.. البؤس يسوده ، الا انه لم يكن في سلسلة الامس .. ايكون  
حتما ان تشوه كل الوجوه التي تحشز في هذه الاركان ..؟ لم يبد  
على السجين انه يريد ان يتكلم .. فرغ صبر وهب سريعا فهمس  
وهو ينظر في عيني السجين ..

— هل تعرف كنان ؟

سأل مقدرا انه ألقى بكلمة السر . قال السجين وهو يصب

الشاي المحروق :

— وأعرفك ايضا ..

أنفجرت أساريره وسأل ملهوبا :

— أليس من اخبار ..؟

لقى السجين كلمات نزرة مشوية :

— مات نذير .. ألم تكن معهم ؟ عند باب زنزائنه انفجر

وهجم على الحارس .. انتقموا منه شر انتقام .. وقد يتابعون

اليوم معكم جميعا ..

تسائل وهب مندهلا : من يكون نذير هذا ؟ وأي وجه هو بين

الوجوه التي أنصهر فيها قبل ليلة واحدة ؟ وأحس ان حزنه

يتضاعف لانه لم يتيقن من معرفة الشهيد الجديد .. ثم تراءى

له ان كل واحد من جماعة أمس قد يكون نذير .. كل السلسلة

البشرية تلك ، نذير .. وما دام الآخرون أحياء ، فان نذير لم

يمت .. وأوشك أن يقول ذلك لرفيقه ألواقف قبالة الا انه لم يقع

على احد اذ فتح عينيه .. الى جانب حزنه ضفط عليه حشق

هائل .. وتملكته رغبة شديدة في ان يصرخ أو يضرب .. ود لو

يقذف بالاشياء التي تناولها من اجل الافطار ، لكنه تذكر في غمرة

الهياج والتأثرات أن نذير مات لانه استسلم لسخونة عواطفه ..

وكره أن يموت هو لهذا السبب .. تربع امام كوب الشاي وقطعة

الخبز المنفوخة السمينة ، وعجز عن أن يزردد لقمة واحدة ..

حتى رشفة من الكوب المسود تعسرت على حلقه .. كان يجهد في ان يتصور نذير .. انحصرت امانيه في ذلك .. كيف كانت صورة ذلك الانسان .. ؟ انه تعذب أضعاف ما كان لهم جميعا حتى احتاج وانهار ويسر للقتلة ان يفتكوا به .. ليس نذير اول الضحايا .. هز وهب رأسه .. انه يعرف جيدا .. ولن يكون نذير آخر الضحايا .. من يدري ماذا يكون مصري هذا المساء .. قد يتابعون اليوم معكم .. وان لم امت الليلة فمن يدري اني سأصل إلى نهاية الرحلة؟؟

لقد عالج هذه الاسئلة في الماضي كثيرا .. الا انها تكتسب اليوم مذاقا جديدا .. طعما خاصا .. لا بالحلو هو ولا بالمر .. كانت في الماضي اما حلوة واما مرة .. اما أن الموت ضروري واما ان الحياة أثيرة .. الموت يأتي قدرا والحياة تأتي قدرا فهل يقبله الحالين الى خيار واردة ؟ يوم جاء خبر الرفيق جول - وكان في كهف الاحتياط رقم ١ - ، حزن ، وغضب ، ونقم لكن ذلك كله لم يكن بلون اليوم .. قيل انهم كانوا ينفخون جول من استه بمنفاخ الدراجة العادية حتى يتطبل جوفه ويوشك على الانفجار ، فيدوسون فوقه ، ويرفسونه حتى يفرغوا الهواء المحقون من جميع منافذ جسمه .. هل أعادوا السيرة مع نذير ؟ أم ان عبقريتهم تتفتق في كل عرض عن أبداعات اكثر معاصرة .. مما يليق بالنصف الثاني للقرن العشرين .. وبالقمر الذي هتكه العلم .. ؟ كان جول نائبا لرئيس المنظمة ، وكان أصلب المناضلين .. لم يقولوا له انسحب كما طلب مني ذلك الرجل اللطيف آمس .. ولم يطلبوا منه اعترافا بواقعه كما اراد النقيب هاشم او الرائد عبد المنعم .. كان كل ما يريدون منه : حياته ، وجنوا للنصر .. أن راس المنظمة المدير ، وعصبتها الاول قد تحطم .. ولكنهم لم يلبثوا ان اضطروا الى ابتكار كل شيء عندما ألهمت جماهير المنظمة الارض

والسمااء .. ووصل من داخل جهاز السلطة الى المنظمة - بطرق خاصة - ان تعليمات قاسية تحرم الافراط قد وجهت الى جميع رؤساء الاقبيية والسجون .. هل سيعود التهليل لموت نذير ؟ وهل سيتلوه الانكار ان عاد .. ؟ أية لعبة جديدة من الاعبيهم هذه .. ؟ منذ زمن ، ليس بالبعيد ، صرعوا الرفيق جبر العاصي في عقر داره .. اوقفوه عشرة ايام ، واختفت اثاره تماما ، ثم ظهر فجأة خلف باب داره مقتولا .. رصاصة واحدة في صدغه كانت ، ومسدسه امام عينيه .. لقد أنتحر الملازم جبر العاصي .. لقد اختطفت الانسة سربوهي .. لقد أنتحر وهب بن عفيف المختار .. الى متى تستمر المهزلة يا سادة هذا السجن وبأ سادة كل السجون .. ؟ كان في بداية اشتغاله بالمهمات العملية ، ينكر على السادة أن تستبد بهم الوحشية الى الحد الذي ترويه الاساطير .. اما اليوم فهو يغفر لهم .. ان الصدام نهائي .. اما ان تكون قمة جبل المرام ، واما ان يكون السادة واقبيتهم وسجونهم .. وانتزعه من خواطره صوت رفيقه ناقل النبأ نفسه .. اجفل وكاد ان يثور ..

- لم تأكل ..

خاطبه الرفيق .. فلملم اشياءه ، وبينما هو يسلمها ، سال :

- كيف مات نذير .. ؟

- الم تسمع بمن حفر قبره بيده .. ؟

...

- كذلك مات .. ( غش السجين وقد زاد همه .. ) لينهم

شبعوا من موته .. ( ولم يستطع أن يتابع ) .

أنعقد لسان وهب .. أراد ان يحرك تلك القطعة اللحمية

القابعة في حلقه فأبّت .. بحث بعينين زائفتين عن الحارس فلم

يقع عليه .. لم يرد في تلك اللحظة الا ان يرى الحارس .. قرأ

السجين ما يجول في راسه ، وقال :  
— أنه بعيد ، ولا ينظر آلينا .. هذا من اولاد الحلال .. لقد  
وصلت نشرة نذير الى مهجعنا امس فقط .. وغاب الصوت ...  
ولبت وهب جامدا .. لا حراك .. حتى في القلب لا حراك ..  
ومرت دقائق مرة ، قبل ان يسمع ان نشرة نذير وصلت امس  
فقط .. لم يكن مع نذير اذن ... لماذا حرم من ذلك ؟ تضاعف  
الاسف وغص .. لقد عزّ حتى التصور .. حفر قبره بيده  
ثم ...؟؟ اي مستقبل ينتظر ..؟ انهم لم يكونوا شرسين كذلك  
في يوم من الايام .. انها حشرة الموت لا ريب .. ما هم يا نذير  
ان يحنوا .. قبلك وقبل جول وجبر كان الزبير بن العوام وكانت  
امه .. وكانت الشاة التي ما همها السلخ بعد الذبح ...  
ثم جلس وهو يجتر مكنون نفسه ، وينتظر رفيقا جديدا  
يوصله وقت الغداء بالحياة والخارج ...

## - ٦ -

« كنت عجولا اذ توهمت الراحة يوم تركت القبو » ...  
اعترف ساخرا وهو يخترق بعينه الستارة التي فصلوا بها بين  
السيارة والعالم الخارجي .. كانت السيارة تهبط .. انها في  
طريق العودة من السجن .. لن يستطيعوا ان يخفوا ذلك عنه  
مهما اغلظوا الاسداف .. اسف لانه يتعد عن القمة الحبيبة ..  
جدد وعده واكد حبه .. مع الآخرين يعود .. والطريق الى قمة  
جبل المرام لن يقطعه سجن .. كل الذين تحت يصعدون ..  
كان يحسب انهم انتهوا من امره اذ نقلوه من القبو الى سالول ابو  
ريحة واسعده الوهم في الليلة الاولى .. لكنهم واصلوا  
ملاحقته .. صار العشاء موعدا لوجبتين .. واحدة في الزنزانة

يأتيه بها سجين مثله ، وواحدة في الطابق السفلي ، جماعية ،  
وطويلة ، يأتيه بها مضيفون بلا عد ..

المحقق اللطيف ظل يردد ثلاثة ايام على التوالي : انسحب  
تنج .. انسحب تنج .. انسحب تنج .. وفي كل مرة كان طبق  
العرض جديدا .. القادة سبقوك يا وهب .. ألم تقل أنك رايت  
الرفيق غنيم في القبو ..؟ وفلان وفلان وفلان ... لقد عدّ له  
عشرات .. حسده لانه يحفظ اسماءهم جيدا .. لا شك انه درس  
تاريخ المنظمة بحذق .. اجل - قال وهب - اعرف ان عشرات  
انسحبوا ، وبينني وبينك يا حضرة المحقق ، عشرات ماتوا ، الا ان  
وهب ان يفعل ما تريد .. وعجب لان المحقق لم يقنط مرة واحدة  
ولم ينهره اطلاقا .. لقد اذكره في كل جلسة بنزق النقيب هاشم  
وعصبيته המתاحة ..

- يوم تصل الى مهاجعنا تجد حلمك ...

قال له رفيق جديد كان يقوم بخدمة السجن ، اذا سر له  
وهم الراحة ، وخيبة الامل ... من الزنزانة الى المهجع او  
( السجن الجماعي .. ) ليست المسافة شاسعة في مبنى السجن ،  
الا ان زمنا مديدا يلزم - كما يبدو - من أجل ان يقطعها المرء ...  
اما هو ، فانه يغفل عائدا الى السفح .. يخرج من السجن .. الى  
اين ؟ التمتد به المسافة عذابا اخرا ..؟ قال له المحقق انهم  
سيقودونك هذا المساء الى القبو الذي قدم منه . ثمة دربان الى  
الحرية .. اما ان يكون من السجن الجماعي اليها ، واما من  
القبو .. كذلك قالت سبائته التي اشارت الى الاختيار .. لم تكن  
السيارة تقضي اكثر من ربع ساعة لتقطع ما بين السجن والقبو  
.. عرف ذلك يوم صعدوا به على هذا الطريق .. ولكن نصف  
ساعة قد انقضت الآن قبل ان يصل .. لا شك ان الشوارع في  
منفوان ازدحامها .. الساعة تقترب من التاسعة .. كل من في

المدينة قد خرج الى الغروب والليل ... وندى تموز والنهر  
صافحتهم عيناه على الرغم من الحواجز ، وود لو يبحث بينهم عن  
نور .. لماذا لم نسر معا مثل الناس كل هذه الشهور يا حبيبة ..؟

✱ ✱

اذكره المرافقون في السيارة بأولئك الذين اقتادوه من  
موعده مع عابد الى القبو .. هؤلاء أكثر رقة .. ولكنه عائد  
الى النقيب هاشم ومن كان مع النقيب هاشم ..  
- هل ثبت الى رشذك يا وهب ؟  
أكد انه لم يضع رشده من قبل ، فضحك الرائد ساخرا  
وقال :

- انت على استعداد للتعامل معنا اذا ..  
ارتد وهب فزعا .. هل تريدون غنيم آخر ..؟ لم يفه ،  
وانما تحركت شفتاه ..  
قال الرائد جادا بعد برهة :  
- لم تتكلم ولم تنسحب .. انت تعرف هذا .. وهما لا  
يجوزان لك معا .. اختر احدهما يا وهب .. لعلك لمست ان مزيدا  
من المكابرة لن يجديك فتيلا ..  
اعتقت لحظات مشحونة ، قبل ان يهزّ وهب رأسه معلنا انه  
لن يتكلم ولن ينسحب .. وأنه يرفض هذا الاختيار .. وكان  
ينتظر ان يباشر الزبانية مهامهم سريعا .. الا ان الرائد حدق فيه  
طويلا ، ثم ساله ببرودة :  
- هل تريد ان ترى نجاح ؟

وقع السؤال على رأسه موقع الصاعقة .. نجاح ؟ وهل  
وصلت اليها ايها الوغد ..؟ ما الذي جاء بها الى هنا ؟...  
انت تعرف قبلي انها ليست عضوة .. وانت تعرف ايضا انها  
ليست اكثر من طفلة .. طفلة كبيرة ايها الرائد المبجل ..

هل تتفتق عبقريتك أنت أيضا ؟

لم ينتظر الرائد جوابا .. ولم يابه لما اعتمل في نفس وهب .. نادى على الحاجب ، وأمره بأحضار نجاح . ودلفت ابنة الستة عشر .. دلفت ربيعا غضا وشاحيا .. وجالت عيناها بين الرائد والرجلين الآخرين قبل أن تصلا الى شقيقتها .. وعندما تضامت الاعين همت أن تندفع ، وهمّ أن يفتح صدره .. لكنهما توقفا معا في لحظة واحدة .. وامتد الصمت .. فثقلت على الرائد الخيبة .. نهر نجاح :

— لماذا لا تصافحين أخاك يا آنسة ..؟

لم ترد . اتجه الرائد اليه مكشرا ، ومومئا بيده :

— سلم عليها يا وهب ..

فلم يتحرك .. وبعد قليل انفصلت الاعين الشقيقة ، واتجهت جميعا الى الرائد عبد المنعم ، فأصطنع الضحك ، وقال مخاطبا وهب :

— هل تعرف ان شقيقتك مناضلة خطيرة ..؟ اراهن ان لم

تكن نزلت من بطن امها كذلك .. أبوك وأمك ..

وسمع مع الشقيقة فهقه انفرزت في جبينه خنجرا مسموما .. نجاح أطرقت ، وتصدى هو للسهم مشدود البنيان .. أحسّ أن عبد المنعم قد أمتنه على نحو لا يقل فظاظة عن يوم اللواط .. وأراد أن يقول شيئا أو أن يصنع شيئا .. ثمة نار اضطرمت في انحاء الصدر تدفع .. لكنه افتقد كل شيء سوى ابتسامة مرة قاتلة .. شك بها وجه الرائد وهو يهزؤه على الفوز الساحق ..

امتعض الرائد واتجه الى نجاح بصوت غليظ :

— نعم يا آنسة .. ماذا تقولين لهذا الضال ؟ الا ترين

شقاءه ..؟

قالت نجاح وقد ابصرت شعر وهب وذقنه لأول مرة منذ أن  
دخلت :

- أخي ليس ضالا يا حضرة الضابط .. الضال هو من يشتم  
الآخرين ويعذبهم .....!  
ولم تستطع أن تكمل العبارة .. اجهشت في بكاء صامت  
حار ..

- أخرجي .. ساقطة أنت الأخرى ..  
أمرها الرائد ، والسكين لا تزال تفري كبد وهب .. ضغط  
الرائد فوق منبه خاص ، وفرك أصابعه . قرع الباب ومد رجل  
رأسه . قال الرائد :  
- ادخلها ..  
فاذاً سربوهي ..

دار المكان بوهب وكاد أن يرتمي قبل أن تلتقي عيناه بها ..  
لم يبد عليها أنها فوجئت لمراه .. ابتسمت له ، وحيته برأسها  
فنهض بمشقة من تحت الدهشة ورد التحية .. وقفت بثبات  
قبالة الرائد .. مع الانتظار كان وهب يستفيق رويداً رويداً ،  
ويتبين سربوهي أمام عينيه حقيقة لا وهما ولا خيالا .. سال الرائد  
أخيراً :

- تعرفها ..؟  
تردد وهب قبل أن يؤكد :  
- نعم ..  
وتذكر أنه أنكرها أمام عبد المنعم نفسه . ضحك الرائد  
وسأله أيضاً :

- ما علاقتك بها ..  
لم يهيء الجواب هذه المرة .. رمى سريعا :  
- لا شيء ..



علا صوت الرائد فجأة :

— ماذا قلت يا سربوهي .. اعيدي كل كلمة أمام هذا

الكلب ..

وبمشقة نفذت كلمات سربوهي الخافتة المتقطعة الى مسمعه :

— كنا معا في خلية واحدة .. اجتمعنا خمس مرات ..

ووزعنا منشورا واحدا ..

كان نزرا ما قالته ، ولكن الذهول امتلكه قبل ان تفرغ ..

اتكونين قد هنت يا سربوهي ؟ كيف تلفظت بحرف واحد ؟ لقد

اختطفوك اذن !! وها هم يسقطونك !! صمم على الا يتفوه بعد

الان .. ليكن ثمن الصمت ما تشاء له سربوهي او ما يشاء عبد

المنعم .. لقد انكرت كل كبيرة وصغيرة ، من اجل ان تأتي ايتها

الرفيقة لتهدمي كل ما بنيت ..

— لن يجدي التجاهل او السكوت .. ولن تجدي المقاومة

.. اننا وراءكم خطوة خطوة .. ولولا اثر من رحمة لانهرس اكبر

راس مع اصغر راس .. اسمعا جيدا .. ليست من فرصة

اخرى ..

كان الرائد يخاطبهما معا .. وقد انتشل ذلك وهب من

القمار الذي اغرقته فيه كلمات سربوهي .. تابع الرائد :

— وقعا الانسحاب الآن وعودا الى الدنيا ..

اطلق وهب ثورته :

— لا ..

وعندما تلاشى صوته الرافض الفاضب في سماء الفرفة ،

تنبه الى انه سمع ( لا ) اخرى .. اتكون سربوهي قد قالت ؟ ..

شد عنقه اليها ملتفتا بغتة وحقق عميقا ، وأطبقت الحيرة عليه

اكثر فاكثر ..؟؟

ارتسمت له الفرفة - وهو يذلف اليها - صديقا قديما ،  
واكد ذلك في نفسه ان الحارس الذي يقف على بابها كان نفسه  
الذي عطف عليه ، وترقق به في ليلته الاولى هنا . سمع وهو  
يعبر الممر لفظا في الصالون . اصوات نسائية حادة ومختلطة  
على نحو هائل . امضى ساعته الاولى وهو يتساءل عما جاء بنجاح  
الى القبو . .؟ وعن اعتراف سربوهي . . . . ولم يستطع ان بهذا  
الى جواب ، فراح يجتر لقاءه بهما ، ويستعيد صورة كل منهما .  
لقد كبرت نجاح في الشهور الستة التي لم يرها خلالها ، ويبدو  
انها تسير على درب الشقيقين مسعد ووهب . . والا فمن اين  
كانت تأتي بذلك الجواب الذي اثلج الصدر وهو يصنع عبد  
المنعم ؟ . . فقط لو انها لم تبك . . واحس بقلبه يتدفق جبا لها ،  
وعطفها ، واسى . . . وسربوهي والابتسامة الاولى التي لم تبته . .  
لقد ازداد قوامها نحولا وشحوبا ، والعهد به ريان يتدفق شبابا . .  
الا ان البأس لا زال وجهها ينطق به وخطواتها ، وكلماتها . . فكيف  
هانت ؟ وكيف اعترفت . . ؟

وجاءه صوت المفتاح يلعب في ثقب الباب . حذق الحارس  
في عينيه برهة ثم قال :

- لقد خرجوا جميعا . . الا تريد ان ترى شقيقتك . . ؟

شبّ وهب واقفا ، وهو يكذب سمعه . هتف :

- اجل ايها العزيز . .

قال الحارس :

- سادعوها الى دورة المياه . . ستترك لك الماء جاريا وتقف  
هنا . . اما انا فستجول هناك ( و اشار الى نهاية الممر المفتوحة  
على منعطف يميني . . ) فاذا ما اشرت ( رسم بيده ) تعود هي

كالبرق وتختفي انت .. أياك ان تنسى الباب .. والصوت ايضا .. لا صوت هاه ...

كذب وهب أوهامه ثانية ، ولبت مبهورا ، ثم نوى أن يقبل الرجل الذي غاب سريعا كأنما ينفذ مهمة خطيرة فورية .. تأمل ما شهدت اللحظات المنصرمة .. ماذا يكون لو أنهم يضبطونه يتعاون معنا ..؟ وهل يعقل أن يكون رفيقا من غير أن أدري ..؟ ان سربوهي تعلم بلا ريب .. لم يكن لطيفا معي الى هذا الحد في المرة الماضية .. صحيح أنه تقلني الى المرحاض اذ كنت عاجزا .. وصحيح انه تركني اقضي ليلتي الاولى من غير اذى .. ولكن ماذا يعدل ذلك ازاء هذه المخاطرة ..؟ وجاءت نجاح .. ارتمت في حضنه قبل ان تجري الماء كما في الخطة .. ففعل عنها الحارس ووجهه يفيض رضى ... وامطرها وهب المحروق بأسئلة لهفي ، بينما كانت هي تداعب شعره وذقنه .. أحست أنها قطعة منه .. وراها هو اقرب اليه من كل ما كان في الزمن الاول .. قصّت عليه ان دورية جاءت بها بعد ان أخبرت والدتهما .. وقالت ان المسؤولين أرادوا ان تنوب عن الاسرة في مشاهدة الابن الضال .. وان تنقل له رسالة الاهل فلعلّ وعسى ( ... ) وسألها عما أوصت به أمه خاصة .. ثم الحت عليه صورة نور .. ليس في الاسرة من يدري من أمره معها شيئا .. ولم يكن يريد ذلك قبل زمن آخر .. أيدع فرصة هذا اللقاء دون ان يسمع عنها كلمة ؟؟. وحضرت الى الخلد سربوهي بينما كانت نجاح منساقة في ثرثرتها الجذلي .. ان سربوهي ستحكي أكثر .. ليس عن نور وحسب .. المنظمة والاختطاف والاعتراف .. وأحسن بالحاجة الى اللقاء بها تتضاعف .. وانقلبت الحاجة ضرورة .. لكن ما الوسيلة ..؟ ماذا سيقول الحارس عن طمعه ؟ وأقر انه لو خير بين اللقاء مع سربوهي أو نجاح ، لقدّم الاولى .. لم يغيب

شروده عن شقيقته فسألت :

— بم تفكر ..؟

لم ينكر : كيف اقابل سربوهي ..؟

اندفعت نجاح : سأقول للحارس ..

رضي بالحيلة .. واسعده ان الحارس لم يرفض .. بل لم يتمعض .. وجاءت اليه سربوهي ضاحكة كعدها .. تشمخ بغرتها كمهرة ، وشدت يديه وكتفه ..

— كنت واثقة اننا سنلتقي مثل هذا اللقاء قبل ان نغادر

القبو ..

انسته الفبطة ما اعتمل منذ قليل في صدره وهو يسمع الاعتراف .. تراءت له في عينها ايام الشقاء الاولى ، والاختفاء ، والترقب ، ونور ، ومسعد ، ومسؤول الفرقة ، والمخابيء ... حتى نساء بلاده جميعا حضرن الى مقلتيها فراهن في ومضتها المؤثرة . لم تنتظر ان يسأل .. اندفعت :

— اعقب اعتقالك تضيق هائل .. بدا كأنهم يقذفون بورقتهم الاخيرة .. ولا شك ان شقيقي روبين انساق معهم الى آخر درك ... كان علي ان التحق بالمخابيء فوراً .. او ان انتظر شريفهم في اية لحظة .. لم اتردد .. فجن جنونهم .. وجن جنون اهلي ايضا .. لا تستثن احدا .. أقصد ليس روبين وحده .. أشاعوا الاختطاف وملأت صورتي الصحف ( ضحكت معتدة ) ، وكان علينا ان نتحرك بأقصى قوتنا لصد الموجة المحيومة .. اتدري اين اعتقلت ؟

كان وهب يتلقف كل حرف .. وعجز عن أن يتخيل المكان الذي قبضوا فيه عليها .. لقد لد له أن يستمع وحسب .. تابعت :

— لقد انكشف كهف الاحتياط رقم — ١ — لن تسألني الآن

كيف .. المهم انه لم يكن في الكهف حينذاك غيري .. هل احدثك  
عما فعلوا بعد ..؟

واطلقت ضحكة مشوبة بالمرارة والهزء .. وقرا الالم في  
جبينها فغض .. ( لا حاجد بك لان تقصي ) تكلم وهب للمرة  
الاولى وأردف : ماذا قلت لهم بالضبط ..؟ قالت :

— لم يكن منطقيا ان انكر على طول الخط .. كان لا بد ان  
اقذف بطعم .. لا تهتم لقصة الخلية والمنشور الوحيد  
والاجتماعات الخمسة .. اعرف الى ماذا وصلت اخيرا ..؟  
انهم لا يبحثون عن معلومات اخرى في هذه الايام .. انهم يريدون  
الانسحاب .. يجب ان نعرف انه صار لديهم من الاسرار ما  
يكفي .. ومع ذلك فقد اعجزهم ان يوقفوا المنظمة خطوة واحدة  
اترى ..؟ انهم يحاولون التخطيط بأسلوب جديد .. ان يخلوها  
من الاعضاء فماذا يبقى ...؟

تساءل وهو يستمع ، وقد عاد ينظر اليها ، عما اذا كان قد  
خالف المنطق اذ انكر على جميع المحققين انكارا نهائيا .. وهل  
يكون تحمل كل ما تحمل وهو يسلك دربا خاطئة ..؟ لم تهتم الى  
شروده .. كانت تسابق الزمن ، وتسعى من أجل ان تقول اكثر  
ما يمكن :

— التقت بنجاح هنا منذ مساء امس .. ونمنا في الصالون  
.. معنا كثيرات لم يؤذوا أية واحدة منا .. بعضهن زميلات نور  
في دار المعلمات .. لا تظن انهن جميعا من رفيقاتنا في المنظمة ..  
الاوغاد يسعون من أجل ان يحفروا بيننا وبين الجماهير .. فمن  
رات عضوا او عضوة على مسافة ميل يتحتم أن تحضر الى قبو  
ما .. لماذا ؟ لان اهلها سينقمون على اصل البلاء .. وتنزل  
المنظمة اذن ..

قال وهب :

— الناس تعرف أصل البلاء ..

وهم ان يقلت ما اثاره قولها في قرارته من خواطر وكلمات ،  
الا ان عينيه وقعتا على يد الحارس ترسم حركة خاصة .. لم  
يتثبت مما اذا كانت اشارة ام لا .. ومع ذلك فقد قطع رغبته  
وسال عجلا ، وقد تبدلت ملامحه ونوى ان يختفي :

— الم تري نور قبل ان تذهبي الى المخبأ ..؟ الا تعلمين من...  
هذه المرة تبدت اشارة الحارس من غير لبس .. لم يقل لها  
اذهبي .. اختفى كالبرق وأوصد الباب مصوتا او غير مصوت  
لا يدري .. ثم هرع الى زاوية الغرفة وقد تقبض قلبه .. ا تكون  
سربوهي قد ظلت واقفة ؟ ا تكون الخطة قد أخفقت ؟ ا يكون الحارس  
المسكين قد افتضح معهما ..؟

لم تمتد به الخواطر .. جاءه الصراخ المجنون سريعا :

— ماذا تفعلين هنا يا قحبة ...؟

وانفتح الباب عن وجه لم يطالع له من قبل .. هبّ مأخوذا  
وقد اصفر .. وسربوهي والحارس قبالة خارج الباب اباس حالا .  
كشفت عينا الرجل القبطيتين المؤامرة من اولها الى آخرها ..  
قراها في سحناتهم واحدا واحدا ..  
هتف بوهب :

— حتى هنا يا ابن الكلاب تعقد اجتماعات واتصالات ...

وانهال بيديه ورجليه وجنونه وغيظه فوق ذهب الذي ظل  
جامدا كصخرة ، بينما كانت سربوهي تحبس الدموع والهلع ، وكان  
الحارس يخفض هامته مسلما ...



## الفصل الثالث





## اليوم الاول

« خلف القبة ، كانت الشمس قد غابت ، مخلفة صفرة محمرة تصبغ مرائى العين ، وكنت استرق النظر ، وأنا أعبر باحة فسيحة لم أشاهدها من قبل في السجن ..  
في السيارة التي نقلتني ، وفي القبو أيضا ، لم أكن أقدر أن أرى الشمس ، ولا القبة ، ولا الغياب .. حزرت وهم يتجهون بي الى أحد الابواب الخفيضة الضيقة انني ذاهب الى سجن جماعي .. الى مهجع كما سمعت أحد رفاقي يسمى على باب سالول أبو ريحة .. وقد اغتبطت وتذكرت من قال لي ان الزج في المهجع يعني اجتياز المراحل بسلام .. حقيتي ان الاحكام لم تصدر بعد .. ولن تصدر .. وحقيتي انك هنا رهن الاحضار والابداع الذي تجود به عبقرية السجائين والامرين والمحققين . ولكنك ، رغم ذلك ، لا يفرق فؤادك .. انك بين اولاء الذين انصهر روحك في روحهم منذ طلعت بكم المنظمة الى الميدان ..

لم أكد أخطو خطوتي الاولى داخل المهجع ، حتى هب كل من

فيه يؤهل بالضيف الجديد الذي يعرف سلفا ان اقامته مستطول  
هنا .. لم اكن احمل شيئا البتة .. وقد فطنت الى ذلك اذ وقعت  
عيني على حقائب كثيرة ، وانا اطوف المكان بنظرة خاطفة .. كان  
الازدحام شديدا في باحة المجمع الواطئة ، وفوق الكنار العريض الذي  
يعلو قليلا ، والذي اذكرني بالمصطبة في بيت خالي في الريف . كان  
كنان على رأسهم .. كنان نفسه .. فتح صدره وبسمته وعينيه  
واختضنتني .. وبأسهم قال لي كلاما اسكرني .. لم اكن اعرف قبلا  
انني استحق كل هذه المحبة .. لقد تولى هو تعريفني بجميع الرفاق  
المساجين ، وقال : ليس بيننا غريب في هذا القسم من السجن . لقد  
فرضوا الحجر في هذه المهاجع على النوعية الخطرة من الرفاق ..  
فحققوا لنا ما لم نكن نحلم به .. اليس كذلك ايها الرجال ؟ واجابته  
ضحكات مجلجلة سعيدة .. مضت ساعة على الاقل قبل ان تتحلل  
الحلقة التي احاطت بي فوق بطانية احد الرفاق . قال الرفيق عزت  
الذي كان متريعا قبالي :

— اوه .. لقد نسينا ان نقدم لك حق الضيافة ..  
كانوا يصرون على ان اروي لهم تفاصيل حكايتي الدقيقة مع  
عابد ، وفي القبو ، وفي سالول ابوريحة ، حيث استعنت بكنان ،  
حتى اذا انهيت ذلك كله ، كان الامر قد هان عليّ وانا ارى عيونهم  
تلاحقني ، وانصاتهم يفريني ..  
قال كنان : في السجن تحلو الحكايا .. ويعزّ الماضي ..  
ستجد نفسك تعيد روايتك مرات ومرات ، وستسمع الى الآخرين  
وهم يقصون عليك اخبارهم للمرة العاشرة .. ولن يعرف الملل يوما  
هذه الحكايا التي تقتل الوقت هنا وتحيي الهمة ..  
تلذذت بكأس الشراب الذي اعده عزت ، لكنه حرك امعائي ،  
وقد علمت ممن حولي ان عشاء السجن يكون قبل الغيب .. ومع  
ذلك فقد جادت عليّ خبايا عدد من الرفاق بما اتخمني .. ولم يلبث

الضوء الشحيح في وسط السقف أن انطلقا . نهمس جاري الرفيق  
سيف في آفني :

— حان موعد النوم .. يطفئون الانوار في الساعة التاسعة ،  
ويبدأ التفقد ..

سألته عما يكون فيها لو أن احدا لا ينام فقال : انهم اذا  
اكتشفوا الامر لا يسكتون ، ومع ذلك فان كثيرين في كل مهجع  
يسهرون بعد التفقد ما يحلو لهم ..

لم يكونوا قد سلموني أية حاجة مما شرح سيف انهم يعطونها  
للسجين .. ولم تكن بي رغبة للنوم .. لكن السكون الذي يلف المهجع  
تسرنى على أن أغمض .. حضرت الى صورة السالول والبعض  
الناشط في سقفه .. فتحت عيني وحاولت أن اسبر العتمة ، واكتشف  
سقف المهجع .. هناك كانت الفتحة اللعينة ( أم ريحة ) .. وهنا ،  
في زاوية المهجع المقابلة للباب لاحظت أن ستارة صغيرة من الخيش  
المثقوب تقوم . عرفني كنان أن دورة المياه والمغسلة خلف تلك  
الستارة .. لم أر الامر كريها كما كان في السالول . الا اني لم اصدق  
أن هؤلاء الرفاق جميعا وهم اكثر من عشرين ، قد عاشوا شهورا بل  
سنين كاملة قبلي في هذا المكان .. دون أن يبرحوه ، لا في الليل ولا  
في النهار ، الا الى الخدمة أو الى التعذيب .. أن امتاز المهجع لا  
تربو العشرة في الطول ، ونصفها في العرض ، ومع ذلك فلان كل هذا  
العدد من البشر يجلسون فيه يوما بعد يوم ، وزمنا اثر زمن . وفي  
كل الساعات والدقائق . ( سيكون عليك أن تتمشى بين حين وآخر  
هنا .. تلك هي الفسحة الوحيدة للتنفس والحركة ) علمني كنان  
أول وصولي ، وأشار الى باحة المهجع المنخفضة ، وقال ايضا :  
( ان فسحات الحركة والتنفس في سجون العالم تكون خارج المهجع  
الا في هذا السجن ) . فعجبت لحرصهم الشديد علينا .. لقد حاولت  
أن أستعيد وأنا أنتظر النوم كل ما تعلمته خلال الساعات القليلة

الفائتة .. تلك هي حياتي الجديدة .. سيكون عليّ ان ائتلف مع الصغيرة والكبيرة فيها .. وبأقصى السرعة يجب ان افعل .. لم يقولوا لي كل شيء .. كل الذي حدثوني اكاد ان هناك كثيرا مما لا ينقل ، ولكنه سيعاش .. يعاش فقط .. فماذا في حياة المهجع مما لم أجريه قبلا ؟

في القبو تضافر عليّ الجوع والوجع والوحدة .. وفي المخايب والشهور الخمسة عرفت الارض الجرداء والسماء العارية والانتظار ، وقتلت الوقت مرات تلو مرات وانا اعد عشرة عشرين ألفا الفين ، ثم اعود فأعد ثنتية وثلاثين ، صعودا ونزولا ، وقتقت ، واقتقدت العشاء والغداء والامطار .. فبماذا يعدني كنان وغير كنان هنا .. ؟ سمعت وانا اوشك ان أغرق في خواطري وقع اقدام تقترب ، ولم يلبث ان فتح الباب بغلظة ، ورأيت وانا شد على جفني ضوءا خاصا يطوف بأنحاء المهجع .. وما كاد ذلك كله ينتهي حتى عجبت لعودة الحياة الى الجميع . بصت سيجارة في زاوية قريبة من دورة المياه ، وتسرب الهمس ، من اكثر من مكان ، ودسّ سيف يده في خاصرتي فأكدت له انني لم أغف . اقترب مني حتى كاد أن يلاصقني ووشوش:

— الليل طويل ... ستضجر من النوم ..

أدركت أنه يدعوني الى انسهرة والكلام . قلت :

— افرض أنهم باغتونا ..

قال واثقا : أنهم لا يفعلون .. لقد جربناهم .. وصرنا نعرفهم أكثر مما يعرفون أنفسهم . ووصف لي كيف تنمو العلاقة بين السجين وسجانه ، وكيف يكون التأثير متبادلا وقال ان الامر يختلف هنا كثيرا عنه في الاقبية او السواليل .. حتى في الغرف المتوسطة لا يتشابه الامر معه هنا .. وراق لي الامر حقا .. ان الفة خاصة تنمو بين النقيضين ... الانسان حيوان اليف .. من قال ذلك ؟ لكن السجين يظل اذكى .. أكد سيف .. ويكون أقدر على قراءة سر

السجان .. ان السجن يشخذ البصيرة ، ويصقل الرؤى ، ولا يتردى فيه المناضلون الاصحاء .

سألته عن الغرف المتوسطة ، ولم اكن قد سمعت بخبرها ، فضحك ، واقسم انني سأقضي عشر سنوات في هذا السجن ، وسأخرج بعدها وأنا اجهل الكثير من الغازه ..

سألني عن سوالييل أبو ريحة فتباهيت بمعرفتي ، وبدأ انه يستمتع بي ، وخلصت نفسي — متأخرا — غص التجربة ، ولا يجبل بي أن أتباهي ، فمقطعت جوابي ، وسألته عن السوالييل القبرية ، وكان قد ذكرها ، وقلت :

— هل عشت فيها ؟

قال متائيا :

— لن أحكي لك الا ما عرفته بنفسي .. وبيننا هنا كثيرون عرفوا زيادة عني .. لقد جئت يا عزيزي من سالول أبو ريحة الينا دفعة واحدة فهل تحلم بحظ أسعد من ذلك ..؟ اتعرف كيف كان يجب أن تسير ؟

انكرت ، على الرغم من أنه لم يكن ينتظر جوابا كما بدا . قال :

— الغرف المتوسطة هي المرحلة الثانية .. انها ليست بعيدة عنا . في هذا الطابق :. نفسه .. وكل منها تتسع الى استلقاء ثلاثة أشخاص الا أنهم يحشرون فيها ضعف ذلك العدد أو ضعفه . ان أصحاب هذا السجن يلعبون في تلك الغرف لعبة خبيثة .. ولكن الرفاق كشفوها .. في كل غرفة يدس سجين من جواسيسهم ويكون من المستحيل عليك أن تعرف أيا من هؤلاء الذين يشاركونك حياتك ومصيرك هو الجاسوس .. يسلخون جلدك وجلده .. ويحققون معه أمام عينيك ويحرمونكما معا النور والنوم وتستويان في كل شيء .. ومع ذلك فهو يتجلد .. ربما أكثر منك .. أنه عنصر خاص من عناصرهم .. من خيرة رجالهم يكون .. ولا بد أن تفك صمتك

ذات يوم .. سيحدثك هو عن سيرته ونضاله ومكابداته ثم ستحكي أنت .. ولكن هل تصدق يا وهب أن رفيقا منا مع ذلك لم يتورط في الفسخ ؟

كنت قد استغرقت مع صورة الغرفة التي تغن سيف في عرضها ، حتى أفاقني سؤاله ، فازدبت رغبة واهتماما وانصاتا ، ويدوت كطفل غريب يتلقف الحكايا الغريبة الماتعة . قال :

— أتدري كيف كشفنا جاسوس غرقتنا ؟

لم ينتظر جوابا . قال أنه أثار نقاشا مرة حول صوفية الثوري ورومانسيته ، فتحسس أحد السجناء وامتدح تلك الخاصية في المناضل فعارضه سيف ، وأكد على علمانية ومادية الثورة ، وعندئذ ردد المسجين الآخر كلمات الروحانية والكفر والغيبية وما أدراك وكان حارا على نحو انشدت معه الابصار جميعا صوبه . قال سيف :

— المنظمة الثورية التي تربينا فيها لا تخرج صوفيا أو غيبيا يا عزيزي .. أما أقول أنه مبتدئ فمردود لأنه لو كان كذلك لما وصل الى هنا .. انه ليس منا .. غريب ومخدوس حكمت عليه العيون المتحلقة دون أن يتنوه أحد .. وفي اليوم التالي سحبه من الغرفة بدعوى انهيار عصبي ..

كنت قد سهوت عما بدأ فيه سيف ، لكنه كان مصرا على أن يقدم حديثا كاملا ..

عاد الى شرح مراحل السجن ، فضحكت وأنا أتذكر كنان وهو يؤكد ضرورة الحكاية للمسجين .. كانت المهاجع آخر المراحل كما قال .. ذكرت له أنني علمت بذلك منذ زمن ، وأردفت أنهم أغبياء أذ يجسئوننا-معاً ، فقال :

— أنك جاحد .. بدلا من أن تشكرهم على هذه النعمة تصنفهم بالغباء .. وضحكنا .. أدركت وأنا أتأمل الصمت الذي أعقب ، أن السجن مع هؤلاء الرفاق نعمة حقيقية ، تستحق الشكر ، وتساءلت :

كيف تكون الحرية معهم اذن ؟ . »

## اليوم الثاني

« أرعبتني الاصوات التي أفقت على تدافعها فجأة .. أدت وجهي ناحية سيف مستفسرا ، فرايته يتقز مع آخرين الى أحد الرفاق الذي يتسلق نافذة المهجع مستندا الى الرف العلوي ، حيث تصطف الحقائق . ساورني شك في أن تكون اعصاب الرفيق المتسلق قد انهارت بغتة ، وانه يفكر في هرب مستحيل على هذا النحو .. سمعته ينادونه « أبا الفوز » ويحيونه .. لم يكن وجهه قد ارتسم في مخيلتي أمس .. استويت فوق البطانية وعجبت لانهم انصتوا تماما فور ما أشار اليهم .. رأيته يدني طسرف أنبوب جلدي من أذنه ، ويتنصت .. طال الترقب بي حتى حسبت الامر لعبة ملة .. وأخيرا نزل الرفيق أبو الفوز ، وقد تورد خداه . هتفوا جميعا ..

— هه ماذا سمعت ؟ .

وراح أبو الفوز يقص باعتداد جملة من الأخبار العالمية . وعندما اتم الخبر الأخير قال :

— لن تفوتنا نشرة واحدة بعد اليوم .. واذا أراد أحدكم أن يرفه عن نفسه أيضا ، ويتمتع بأغنية أو موسيقى فمرحبا به .. أنا عمكم أبو الفوز .. وضرب على صخرة صدره فهللوا له .. سمعت من يهمس أن أبا الفوز لبث منذ الفجر حتى هذه الساعة يجرب اختراعه ، وانه قضى عشرين فجرا آخر وهو يحاول فلم أعد أستطع الصبر :

ماذا صنع أبو الفوز ؟ .. لقد ارتبت في عقله أول ما رأيته كالقط هناك ..

قال عزت ، وكان أول من برح المجلس قرب النافذة :

— على أمتار من هنا يدير لنا بيت رئيس السجن ظهره .. وقد



اكتشف أبو الفوز منذ مدة طويلة أن صاحبنا مغرم باليقظة الباكرة ،  
والاستماع الى الراديو بصوت زاعقي .. فصار هم الرفيق أن يخترع  
ناقلا يقرب الصوت من المهجع .. وأبو الفوز معروف في شركة  
كهرباء البلد .. فقد أفلح اليوم .. وصنع بوقا من الكرتون على هيئة  
خاصة وثبتة في طرف النافذة ، ثم أوصله بالانبوب الذي ترى .. انه  
الانبوب الذي نستعمله في دورة المياه .. لكن الصوت يصل ضعيفا ..  
بيني وبينك غير مسموع تقريبا ..

اثارتني الحكاية حتى همت أن أنهض الى مجلس ابي الفوز ،  
لولا أن ميلي الى الاستلقاء قد غلب .. فادركت أنني لم أتم جيدا ..  
لعلت سيف الذي ظل يقتص من الليل الطويل حتى أوشك أن يجهز  
عليه .. وقرأت في محياه هو الإخر ارهاقا من السهر .. لكنني  
أحسست أن هذا الانسان قد صار قريبا مني .. أكثر من كل الذين  
يحيطون بي .. وفكرت في أن هذا الاحساس سيعاودني كلما ازددت  
قربا من رفيق آخر .. يسمعي واسمعه من كل كلام .. لقد قال  
سيف انه لم يعرف أباه ولم ينشأ في مدرسة ، سار من « الكتاب »  
الى دكان عمه النجار ، وهناك تعلم كل شيء .. وهالني أن يكون في  
دكان نجار بسيط قراءة وكتابة وحرفة ، وزبائن فقراء وآخرون  
أثرياء ، وذلك العم الذي يحيا الاستغلال من حديه ، فلا هو يرحم  
زبونا ، ولا يرحمه تجار الاخشاب والمواد ، ولا أصحاب الماكينات ..  
تلك كانت مدرسة سيف .. وعلى الرغم من أنني حسدته عليها ،  
فقد تأملت لحرمانه ... ومن الدكان الى بؤر المنظمة قطع الدرب  
قفزة واحدة .. قلت له : انك كنت تبتغي الفرار من الدكان ، فاحدد  
وقال : وماذا تبتغون وانتم تطيرون الى مكائن المنظمة في كل مكان غير  
أن تفروا من فساد دنياكم .. فصحت له :

ذلك السبب الاول . ولقد ظلت صورته وهو ابن العشرين ،  
يأتي ذلك كله ملء كياني ، منذ أن صمت ، ونويت أن تنام .. الا انني

لم اتردد في قذفه الان ، وأنا أرى مدى ما اذى السهر ..  
كانت المجموعات قد اخذت تتشكل في أتحاء المهجع ، بعد أن خف  
وقع اختراع أبي الفوز ، ولكن الاخبار التي نقلها ، كانت الحديث  
الطاغي .. لقد اتصل المهجع بالعالم الخارجي .. أبو الفوز ،  
والاختراع .. واغتمت اذ تصورت انه لم يكن ثمة أية صلة في الماضي  
بين المهجع والخارج .. وفي هذه الاثناء ، كان الباب يفتح ، وسمعت  
من يقول منا :  
لقد آن أوان العمل ... ولم تكن ساعتى تتحرك اذ ذاك .



كنت آخر من برج المهجع .. وقد حاولت أن أفهم سبب الحيوية  
التي دبّت في الرفاق جميعهم فجأة ، منذ أخذ المفتاح يلعب فسمعت  
حكايات الافطار ، والحمام وشطف باحة المهجع .. ورأيت كلا من  
الرفاق ينقب في حقيبة أو صرّة ، ويهرع نشطا الى الخارج . وهناك ،  
في الباحة الواسعة ، وجدت أن عددا كبيرا من الرجال قد اجتمع ،  
وأن أبوابا عديدة مشرعة ، تقابل أو تجاور باب مهجعنا ، وتمثله ..  
وقد علا الهرج ..

— هل الآخرون رفاق أيضا ؟

سالت الرفيق هراج ، الذي كان الى يميني واقفا يتأمل . قال :  
— أجل أيها الرفيق .. هذا أجناح مخصص بكامله لنا ..  
وأعتقد أن أغلب من في السواليل أو الاجنحة الاخرى هم منا أيضا ..  
ثم ضحك قبل أن يتابع :

— لقد انصرفت ألينا السلطة انصرافا كلياً .. لا اللصوص  
ولا القتلة ولا الذين يلقون ويبرمون على قوانينها .. نحن الآن أهم  
أيها الرفيق ..  
وبدا الافطار .

تريعنا على الارض منتظرين أن يطوف بنا السجين المناوب .  
كان نصيب كل منا كوبا ضخما من الشاي المسود الذي تطفو على  
صفحته بقع صغيرة من اثار الدسم .. لقد كان الكوب نفسه يستعمل  
في الغذاء أو العشاء من أجل السوائل .. قطعة خبز منتفخة ،  
متحجرة الاطراف ، وقطعة متواضعة من الحلاوة الهشة .. كان  
اقبالنا على الطعام مفاجأة لي .. وقد ابصرت أكثر من رفيق يخرج  
من احدى مناطقه السرية مواد أخرى ، يضيفها الى حصته ..  
أسرّ في اذنّي الرفيق هراج :

— الحق يقال : ان الحكومة — كما علمت — تخصص مبالغ  
معقولة من أجل طعامنا ومعيشتنا .. الا أن الاخوان ( وأشار الى  
عدد من رجال الشرطة ينتشرون قرب مدخل الباحة وأبواب المراجع )  
بطونهم عزيزة عليهم .. الا ترى الى كل برمبل فيهم ؟ ..  
انتهت عملية الإزدراد سريعا .. وتولى أبو الفوز توزيع افراد  
المهجع الى مجموعات .. كما شرع آخرون يقسمون رجال المراجع  
الأخرى ..

كنت أراقب بعجب . وببلاهة . وكنت مطيعا على نحو لم أعهده  
من نفسي قبل اليوم .. أخذ الرفاق الذين تولوا القسمة يأمررون ،  
بينما كان رجال الشرطة لا يزالون يسندون الجدران والأبواب ..  
لم أكن أعلم نوع العمل الذي ينبغي أن تنجزه مجموعتنا ..  
لقد اتجه بنا الرفيق عزت ، وكان على رأسنا ، الى الشرطي الذي  
يقف قرب مدخل الباحة ، وهناك ، تقدمنا الشرطي صابتا ، وقادنا  
الى غرفة ضيقة مسوّدة ، وقمت فيها على بوابير وبراميل صغيرة ،  
غلّفها دبق الشحوار .. وكانت في احدى الزوايا كومة عالية من  
الثياب ..

قال عزت ، وكان الشرطي قد أخذ يبتعد :  
— أولاد الكلب .. في حضون أمهاتهم كانوا يتدللون كما ندللهم

.. كانت سراويلهم تبيض كل اسبوع مرتين ؟ ..

وتقل ... وتقل آخرون وهم يوقدون البواير أو يقلبون  
الثياب . وفيما أخذت النار تشخر ، وماء الحنفية الوحيدة يصفر ،  
علمني عزت أن بين الرفاق من سيتولى شطف مهاجع الشرطة ،  
ومسح الاسرة والابواب ، وغسل دورات المياه .. وان هذا يستمر  
عادة حتى العصر ، حيث تتأخر وجبة الغذاء ، خلافا للمواعيد المقدسة  
في السجن . وبعد الغذاء يأتي دور مهاجعنا وباحتنا وثيابنا واجسامنا ،  
ولكن ذلك لا يستمر غير ساعتين .. فهم لا يرضون أن تغيب الشمس  
ونحن لم نأو بعد .. وطمأنني أيضا :

— ستنام هذه الليلة ملء جفونك .. بسبب التعب ..

تمثيت أن أنام الآن ، وكرهت أن أرضخ للغسل ، على الرغم  
من أنني جربته مرات ومرات طوال الشهور الأخيرة ... وكنت أباري  
فيه مسعد في بناية شوري .. لكنني انصرفت عما جال في داخلي ..  
( لان زمن التمني الباطل أعرف انه قد ولى .. وأما وقت الاماني  
العادلة ، فانه لم يحن بعد ) .. »

### - ٣ -

» لم تعذبني الحيرة من قبل مثلما فعلت بي منذ قليل ، وأنا  
أستمع الى الجدل الحاد في حلقة واسعة ، على رأسها أبو الفوز  
وسيف . لقد اضطرت الى السكون ، ورحت أداري في سري جملة  
من أحاسيس الشك والحرص والبيلة . ولو اني خضت فيها تحمس  
له رفاتي لانفضحت بالتأكيد . كان النور بخيلا يبسر لظلال كثيرة أن  
ترسم فوق الجدران خاصة .. وكأنت النسمات التي تتسلل من  
النوافذ الحديدية العليا النزرة ، لا تؤثر في الهيئة الخاصة ، التي  
صنعت الجو عليها أنفاسنا .. ومع ذلك فقد كان الضيق أو الحر  
بعيدين عنا .. وكان سيف يجدد عهدا سمعته يعلنه مرات منذ

نزولي في المهجع :

— لن أتزوج قبل أن أطمئن إلى انتصار المنظمة انتصارا نهائيا ..

وكان ثمة رفاق آخرين يعلنون ذلك أيضا . إلا أن أحدا منهم لم يكن حارا مثل سيف . لقد هزا منه أبو الفوز ، فثار ، وانقسم المتعلقون إلى مؤيدين ومعارضين . وقال أبو الفوز :

— لم يحل الزواج بيني وبين مهماتي لحظة .. ولا أولادي الخمسة .. أنني القاهم وأنا في داخل هذا السجن كل يوم .. ولولاهم — ربما — لم أكن مشدودا إلى أمام بمثل هذه القوة ..

كان سيف قد قال أن الاسرة تشد إلى الوراء ، وأن قلب المناضل يجب أن يكون خليا إلا من هم المنظمة » . ولم يكن هذا القول بعيدا عني .. لقد أحسست أنه ينقر على ادق الاوتار في صدري .. كم تأرجحت قبل أن أمد يدي إلى نور ؟

هل الاسرة تشد المناضل إلى الامام أم إلى الوزراء؟ هل ستكون نور عشرة في دربي أم دافعا جديدا يقلب مسيرتي ويغير بي ؟ وكان مسعد يؤجج النار أكثر ، وهو يؤيد ارتباطي بها تارة ، ويعارض أخرى .. والحق أن الحاح همومي المتصلة بها كان يخيف مسعد . وفيما عدا ذلك كان يحب نور هو الآخر ويدفعني إليها دفعا .. قال هراج يخاطب سيف ، وقد كان متزوجا أيضا .

— ما دمت تهب نفسك للقضية على هذا النحو ، فمن المحتوم أن تهتم بكل ما يجعلك تعطي أكثر .. ليس كذلك ؟

أكد سيف هازا رأسه . تابع هراج .

— من الواجب إذن أن تتزوج ..

لم يكن السؤال قد أظهره معاضدا لابي الفوز . انتفض سيف وهو يستنكر . قال هراج ببرودة .

— أرجو ألا تضطرنني إلى الشك في حالتك الجنسية ..

علا الخلط ، وبمشقة تميز صوت كنان ، وكان واهي الحماس  
للحلقه .

— هراج يريد ان يقول ان اغماض العين على الجنس لا يعني  
انصرافا كاملا للمهمة ..

قاطعه عزت موضعا بصوت مرتفع ، وكانا كليهما عازبين .  
— لن يفيد يا سيف ان تصعد حاجتك الجنسية .. هل تريد  
ان تناضل بمنطق العلم ومعطياته ام لا ..؟ ها نحن غير متزوجين  
مثلك ، ولكن هل ندعي اننا لم نستحلم مرة واحدة ، منذ حجرونا  
في هذا القبر ..؟ من منكم جميعا يقول انه لم يحلم بامرأة منذ نزل  
هنا ..؟ اكشفوا عن سراويلكم لارى ..

كان الهدوء قد ساد قليلا ، حتى اذا انتهت عزت تناثرت عدة  
ضحكات ولعنات ، بينما افضى سيف . وكنت اقرا في عينيه  
سري .. هل يشكون في قوتك الجنسية وانت تؤكد تفانيك من  
اجل المنظمة ؟ هل تشك في اخلاصهم للقضية طالما انهم يحلمون ان  
يجبوا او يضاجعوا او يتزوجوا او ينجبوا ...؟ لا .. نحن جيل  
خاص .. عبثنا ليس بباقي الاعباء .. لا الجيل الذي سبقنا ولا  
الجيل الذي سينعم بشقائنا مطالبان بالانصراف عن كل الاشياء ،  
من اجل المنظمة .. ومن اجل تغيير وجه الارض الكالچ .. نحن  
وحدنا مطالبون .. خاطبت سيف في عيني وفي صمتي .. وارجفني  
ان تلتقي انصارنا لحظة .. قلت هذا الكلام يا سيف منذ اليوم  
الاول الذي هفوت فيه الى نور .. وتقلب فوق الشوك زمنا طويلا  
قبل ان اعزم على مفاتحتها .. كنت اسأل .

ايكون من حقى ان افعل ؟ .. وعندما فعلت ورحت اقصر ،  
صرت اسأل عن صحتي الجنسية .. هل انا ضعيف ؟ ام ان  
السياسة تهد العصب كما يقولون ؟ وعصبي مهدود يا نور .. عشر  
لقاءات لم اقبلها .. اتكون قد حكمت علي ؟ كان السؤال يلسعني

.. ولكي احمي نفسي منه قبلتها بعنف واصرار فيما بعد .. لا  
الرغبة وحدها كانت تدفع .. وقد عجبت هي من انفجاري دفعة  
واحدة . وبعد ان اجتزنا هذه القبله استيقظت رغبات اخرى في  
اعماقنا ..

ايكون علينا أن نتعامل كحبيين شرقيين ..؟ فأين التفسير  
الذي ننشد ونحن نحيا نقيضه ..؟ وما هي حرمة هذا الجسد ؟  
ليس من حرمة الماضي الذي نرفض ؟ ومرة اخرى دفعتني الرغبة  
في التخطي والتاكيد اكثر من الرغبة في ممارسة الجنس ... وما  
رايت انها كانت قصية عني في ذلك كله .. لكن السؤال طار فيما  
بعد الى المستقبل .. وصار يلح .. ويزداد الحاحا منذ ان اخذت  
المعركة تحتد بين المنظمة وبين السلطة .. هل سننظرنا الايام حتى  
نبني عشنا يا نور ؟

لا تسأل يا سيف .. ابو الفوز بنى عشه وعالج سؤاله  
الخاص .. كيف يكون العش في امان من الفقر والعسف ؟  
( لنسابق الزمن ) لست أدري من الذي بدا ذلك .. هي ام  
انا ..؟ ولكن ايبكون ذلك حقا ؟ هذه الايام ليست ايام الزواج يا  
نور .. هذا اوان الشد فاشتدي زيم .. هذا اوان الشد فاشتدي  
زيم .. أنت تدركين ذلك في اعماقك .. ليس لي في هذا الوطن  
غير حبك والقمة والمنظمة .. اما سيف فانه يقول .

ان هذه الايام ليست ايام الحب يا نساء مدينتنا التي  
تمخض .. وابو الفوز يرمينا بين الفكين اذ يسأل عن ( رفيقاتنا )  
وعن ( العلم والنسل والجسد .. ) لقد أضحكننا جميعا عندما  
اقترح باسم سيف أن تتوقف عمليات الانكاح والانجاب حتى تنتهي  
المعركة .. سيف نفسه نضحك ملء عروقه .. لماذا لا تكون سربوهي  
مثل نور .. او نور مثل نجاح .. او نجاح مثل أم الفوز .. او ام  
الفوز مثل حبيبة عزت الفلاحة ..؟ كنت عاجزاً عن أن اضع نفسي

في سباق مع الزمن .. وكانت عاجزة مثلي .. ماذا يجدي ان  
نتعزى ..؟ في الشهور الخمسة الاخيرة ، لم يكن حتى اللقاء ..  
كانت سربوهي تأتيني بخفق قلبك يا نور ووهج عينيك .. ولئن كان  
يمكن على كل حال ان نلتقي حينذاك ، فهل يمكن ذلك منذ مساء  
عابد الاخير ..؟ قلبي لا يفتأ يهرب اليك يا نور .. ولكنني اسأله  
واسألك ان كان من الخير الا تظلا مشدودين .. والمستقبل الذي  
ترين بهجم علينا ..؟ من يدريك متى يكون خروجي من هذا  
السجن ..؟ هل سمعت بجول ؟ وهل سمعت بنذير ..؟ صحيح  
انهم ساكتون عنا في المهاجع لكن ماذا يضمن ان نلتقي بعد يا نور..؟  
كانت الاسئلة تطرق صدغي وانا بينهم .. فعندما خلوت بعد  
التاسعة ، فكرت للمرة الاولى في ان تنفك ما بيني وبينها .. كان  
كلام ابي الفوز يقنعني .. وكان كلام كنان وعزت ايضا ، لكنني ظلت  
رغم ذلك اميل الى سيف .. واهفو الى نور .. واقول لا يجب ان  
تقرن دربها الى دربي .. سربوهي ارتبطت بالمنظمة والسجون  
والعذاب .. وما يدريني اين هي الآن ..؟ أما نور فباي حق اقف  
عشرة امامها ..؟ ووددت ان اقول الى ابي الفوز وسيف معا :  
— ان الواحد يكون عشرة في درب التي يقترن بها ، وينفص  
عليها حياتها .. وليست هي فقط عشرة في دربه .. ولكن الامر ظل  
رغبة طارئة ، وتساءلت عما اذا كان تفكيري الجديد في أمري مع  
نور سيظل مجرد رغبة طارئة ، وداهمني احساس خفي بالذنب  
فاستغفرت منها قبل ان أحاول النوم » ..

— { —

« دبت في مفاصلي رعشة خاصة وانا اسمع اعلان البوق  
الصباحي .



على جميع السجناء ان يستعدوا لزيارات ذويهم هذا اليوم .  
اتخذت ادارة السجن كافة الترتيبات من اجل ذلك .. تبدأ الحلاقة  
في الساعة الثامنة . مدة الزيارة للشخص الواحد عشر دقائق ..  
يعلن عن موعد الابتداء في بلاغ لاحق .. يحظر على السجناء ان  
يذكروا اي كلمة تتعلق بحياة السجن او قضية السجين أثناء  
الزيارة ..

بومضة عين اخذنا الانصات جميعا .. واتسعت حدقاتنا وهي  
تلاحق الصوت الخشن .. أياكون هذا حقاً ..؟ ما أروع هذا  
الصباح ..!! صمت مطبق وذهول وعجب .. ثم تعالت تهليلات  
الرفاق فجأة .. وغمرتنا عناقات حارة .. وقفز كنان في السماء  
.. يا للفرحة .. لقد عدنا اليك ايها العالم المحبوب .. افتحي لنا  
صدرك ايها الدنيا .. أين كانت حرقه هذه الوجوه مخفية ؟ وأين  
كانت هذه اللهفات التي تفجرت من كل لمعة عين ورعشة قلب ..؟  
لقد كان يخيّل الي أن كل من في المهجع قد سلم أخيراً بانقطاعه  
الكلي والدائم عن هذه الدنيا .. الأهل والأصدقاء والأمان في عالم  
آخر لا تصله بعالم السجن أية أسباب .. قال ابو الفوز ودمعة  
كبر تطفو من مقلتيه .

— سنين يا ام الفوز .. سنين يا اولاد .. حق للشوق أن  
يكبر ..

فضحكت من نفسي .. لم يكن قد مضى على اختفائي أكثر  
من نصف سنة .. وفي السجن لم أكن قد تجاوزت شهري الاول  
كثيراً .. فكيف بالذين لفهم هذا المكان منذ سنة او سنتين او ثلاث؟  
وكيف بالدين طوتهم مخابيء الناقورة والغزال والعمارة وكهوف  
الاحتياط وعشرات بؤر المنظمة ومراكز النضال السرية الاخرى ..  
منذ ان قامت الى هذا اليوم ..؟ لا يحق لي أن تكون فرحتي كبيرة  
كما لهؤلاء .. لا شوقي الى نجاح ، ولا لهفتي الى امي ولا مسعد

ولا ابي تؤهل ان اكون مثل ابي الفوز .. او مثل هراج على الاقل،  
وهو ، عداي ، احدثهم في السجن ..

كانت عمليات الحلاقة تنجز بسرعة ورشاقة .. لم يتركوا  
فوق رؤوسنا شعرة وكذلك اختفت اللحي التي تفاوتت في زمن  
الولادة .. اما ثيابنا فقد جهدنا في ان تكون افضل ما يمكن ..  
وقد اوصت ادارة السجن مرارا بذلك .. كما حذرتنا من ان نسلم  
اية قطعة تحمل دما او ما شاكل .. وصرنا على اكمل استعداد  
قبل العاشرة .. وراحت الذكريات تنثال وتعر كما لم ار من قبل .  
لقد تفجر الحنين كله فجأة .. ومرة واحدة .. حتى ما كان مستهجننا  
من اناس الماضي غداً عزيزا ... وقلت لا شك ان امي ستبكي ..  
بل ان ابي نفسه قد يفعل .. وسيحرقني بكأؤهما .. لكن نجاح  
ستظل ملاذي .. نجاح التي صلبت في اوان الفضاضة .. ولم تلن  
لعيد النعم وهو في اشده .. وابتدت الزيارات واخذوا ينادون  
اسما تلو الاخر .. وفتح الباب مرة اثر مرة .. وبين ربع ساعة  
وأخر كانت تعود الدفعة محملة اليدين والعينين .. وانشغل كل  
عن رفيقه بشجونه .. بينما كنت مع الذين لم يناد عليهم بعد ،  
نترقب ونتشوق ، ونبلع الدقائق الثقيلة على مضض .. وكلما  
تحرك البوق قال الواحد منا ، دون ان يسمع له صوت « ها ...  
هذا اسمي .. لا .. أنه الاسم التالي .. لقد جاء دوري .. فاذا  
خرس البوق تكوم الفيظ المكبوت في احدى نواحي الصدر .. لكن  
الامل الواثق لا يلبث ان يفلب ..

وكان الذين يرجعون يتباطئون في مشيتهم ، وفي كل حركة  
من حركاتهم .. كانوا يبدون بكل جلاء مشدودين الى الخلف .. لا  
يريدون ان يدخلوا .. او لا يريدون ان يعمدوا بمثل هذه السرعة  
.. هل تقعت غلاتهم ..؟ هل انطفأت النار في الحنايا المتناعة ؟  
وكانوا يستعيدون وهم يتلون ما عادوا به كل لحظة من لحظات اللقاء

ألفريد .. ولا تشبع العيون وهي منكبة فوق الأشياء العزيزة  
الصفيرة ..

كنت مع المنتظرين الذين صاروا قلة ، نهديء قلقنا بمراقبة  
رفاقنا أولا .. وكنت اتخيل ما سوف تأتيني به أمي أو اختي  
واتبسم والتلذذ .. لو أن نور تكون الآن أيضا معهم .. لو انها تنتظر  
دورها هناك كما أنتظر دوري هنا .. ستكون قد ارهقت من طول  
اللبث والترقب .. وامي أيضا ستكون ساقاها قد كلتا .. منذ  
اختفى مسعد قبلي اصاب الوهن ساقها .. ولكن العدد الذي  
ينتظر معي راح يتناقص على نحو مفرغ .. حتى حسبت مرتين  
إنني صرت وحيدا .. ايعقل أن يكونوا قد نادوا على كل هؤلاء دون  
أن يذكروا اسمي .. الا يمكن ان يكونوا قد ندهوا وهبا وانا غارق  
في لجة اضطرابي فلم اسمع ..؟ ولكن هل اصاب الصمم اولاء  
الذين ينتظرون أيضا ..؟ ورحت اتسأل عن سبب تأخير دوري  
الى هذا الحد ؟ أيتكونون اتبعوا التسلسل الابجدي في النداء ؟ ان  
اسمي متأخر حقا ولكن الم ينادوا على أحد يتلوني في سلم  
الابجدية ..؟ طفت في وجوه الرفاق فرأيت ياسر الهلالي مع  
العائدين .. اذن قد يكونون اتبعوا تسلسل الارقام في السجن ..  
وانا آخر من دخل .. لم يأت الى هذا المجمع احد بعدي .. طمانني  
هذا الخاطر .. وعاودتني بهجة الامل ، الا ان الشكوك ظلت  
قرية .. أن في السجن مهاجع كثيرة ، وغرفا خاصة ، وسوايل  
متنوعة .. الا يكون قد جاء الى احدها بعدي سجين أو اكثر ؟ فإذا  
ما كان قد نودي على هؤلاء ، فكيف يكون حالي اذن ؟ هل يتعمدون  
حزماني تعمدًا ؟ الا زلت اعامل معاملة خاصة ؟ أن ذلك زال تماما  
منذ اليوم الاول في المجمع .. اذن هل يكون أهلي لم يأتوا ..؟  
ايتكونون جاهلين بمكاني ..؟ أن المنظمة تبلغ لا بد ذوي كل سجين  
اخباره أولا بأول .. فهل يكون الخبر تأخر على أهلي ..؟ كان ذلك

آخر ما دار في خلدي .. وكان اقصى ما واجهت .. كنت لا اريد  
ان افكر فيه .. لا .. ليس ذلك ممكنا .. وحدي من بين كل هؤلاء  
احرم ؟ .. وثقل علي التصور في الوقت الذي كان البوق قد اخذ  
ينادي .. كنا خمسة .. الدفعة الاخيرة لا شك .. واحد اثنين  
ثلاثة .. لم يبق غير وهب وكامل .. وسمعت وهب .. اجل  
وهب .. لكن البوق سكت .. وتلبثت برهة مأخوذا .. لقد بقي  
كامل .. الاكون قد اخطأت السمع .. ؟ ايكون البوق قد تعطل في  
هذه اللحظة .. ؟ ولم يعجبه ان يتعطل الا الان ؟ ونظرت حولي ..  
ان انظار رفاقي تنصب فوقي .. ولم امهل .. صرخ ابو الفوز :  
— مالك كالبله .. اسرع قبل ان ينتهي وقتك ..

فنسيت عندئذ كامل وجريت .. ظللت اعدو والشرطي خلفي  
يجري ايضا ويقذفني بأصوات لم اتيين منها حرفا .. ولم اقف  
حتى صدني الشبك الحديدي الفليظ ، وارتدت الى الوراء ..  
ولم اصدق عيني .. لم اتكلم لاني لم اصدقهما .. بيد ان امي  
كانت قبالي حقا .. ونجاح ايضا .. وابي .. وثمة رجل اخر —  
الى يمينهم — يحييني معهم .. ولم اعرف انه خالي الا في النظرة  
الثانية .. اخترقت اصابعي واصابعهم عيون الشبك ، لكنها عجزت  
عن ان تتلامس .. وكان عليها ان تتراجع عندما يقترب الشرطي  
الحارس منها وهو يقطع عرض الباب ، بين الوجهين الشبكيين ،  
مراقبا لقاءنا .. غفلت تماما عشر دقائق .. تهت .. تكلمت وسمعت  
وضحكك وتأملت ورايت ، ولكن دون ان اتدخل في ذلك كله .. كان  
ثمة شيء اخر في وهب يفعل ذلك .. وكانت الصحوه فظيعة ..  
انتهرني الشرطي ، وشدني وعندئذ ابصرت امي تبكي فانعصر  
فؤادي .. اما نجاح فقد ظلت تضحك .. ووحدها كان صوتها نقيا  
ومسموعا .. كانت القصة تقطع كلام ابي وامي .. اما خالي ، فلم  
افطن الى ما قال الا بعد ان كان باب المهجع يوصد خلفي .. ووجدت

كلماته تزيد من صحتي ، وهي تتوضح في مسمعي .. لماذا تفعل بنفسك يا ابن أخي هذا كله ..؟ لماذا تفعل بأهلك ..؟ انظر الى هذه المسكينة .. وهذا العجوز .. جن اخوك فجننت أنت أيضا.؟ هل تريدون ان تصلحوا ما عجزت عنه السماء ؟ هكذا كان يقول عبد المنعم .. لقد حلت روح عبد المنعم في خالي اذن .. لماذا استمعت الى ذلك الكلام ؟ لقد رددت على عبد المنعم فهل عجزت عن الرد على خالي ..؟ والفيت نفسي انسحب من سعادة عزيزة ، لأفور غيظاً ، واشتم قرابتي ، ونسبي . والثراء الذي أفسد ذلك المغترب الذي صار يلعب بعشرات الالوف .. وقد كان لا يملك القروش .. ووقعت عيني وأنا في قمة أنفعالي على كامل .. كامل الذي ظل وحيداً بيننا . بلا اهل .. ولا أحباب .. ولا لقاء .. كان مطرقاً وكئيماً .. وربما كان يبكي .. انقبض صدري أكثر .. وغادرتني اخر قطرة من السكر التي اجتاحتني منذ لحظات .. وعندما قلبت في وجوه الآخرين ، وجدت الحزن يلفهم جميعاً وهم يسترقون النظر الى كامل ..

يجب ان تكون نهاية هذا اليوم على هذا النحو ..؟ »

- ٥ -

هبت على المجمع منذ الضحى ربيع خاصة .. لم يعد الجو الصيفي خائفاً .. ولا الكثافة استمرت مزعجة .. لقد دعا الرفيق كنان الى اجتماع حزبي هذا العصر ..

تمددت عقب الغداء مباشرة فوق أرض الباحة ، وكان حولي سيف وعزت وقيالتي ابو الفوز ونصري وآخرون ..

قلت :

— ان وقتنا طويلاً قد انقضى على آخر اجتماع ..

قال عزت قبل ان تأتي بفترة والاجتماعات مهوزة ..  
قطع سيف نيتي في الاستفسار وقال :  
- اجتماعات السجن دائماً في مد وجزر .. تنتظم تارة  
وتفتني ، وتتسبب تارة وتفقر ..  
قال ياسر : خارج السجن تمر الاجتماعات أحيانا بمثل هذا .  
تابع سيف : قد تمتد القطيعة مع الخارج شهرا وشهرين ..  
والرفاق الذين عاشوا هنا سنة او سنتين قالوا كل ما يريدون في  
تجاربههم أو في سواها .. ولذلك يكون الجزر اذا لم يكن التواصل  
مع الخارج منتظما ومضمونا ..  
كان باديا منذ اللحظات الاولى التي اعقبت نهاية زيارات ذلك  
اليوم ، ان كنان قد ظفر ظفرا عظيما .. لم تستطع عيناه ان تكتما .  
ولا تلميحاته .. حتى أعلن موعد اليوم .. قلت :  
- ان الزيارات ستيسر علينا الامر كثيرا ..  
فقاطعني عزت :  
- ان هي استمرت ..  
قال سيف وقد اضطجع :  
- ان الانشغال الكامل داخل السجن بأمور المنظمة .. يضفي  
على الحياة فيه معاني خاصة .. معاني عظيمة .. تصوروا .. نحن  
في عقر دار العدو أوثق اتصالا برفاقنا وبشعبنا وبقيستنا .. لسا  
عاطلين كما قد يظن .. ولا نتوقف أبدا .. اننا نفذ خطانا داخل  
السجن ..  
قلت : بذكر حالنا بحال المقيمين منا في اسرائيل ..  
وكان قد انضم إلينا الرفيق هراج فما أن توقفت حتى  
أتجه اليه ابو الفوز من الطرف الاخر وخاطبه بصوت عال :  
- بعد ان فتحوا باب الزيارات سيخف أعباءه عنك يا حضرة  
الأنطاسي البارع والصيدلاني اللامع ..

ضحكنا جميعا ، اما هراج فتبسم ببخل ، ولم يفه ، وكان  
الرفاق يلهجون دائما بالدور الذي لعبه في أحلك أيام السجن ..  
ويذكرون صيدلته التي زودت السجن بالادوية وبغير الادوية ، قبل  
ان يدخله هو .. كانت حبوب ( الغوار ) تحشر بنتشف النشرات  
تنير سواد الايام الصعبة .. وكانت ألعاب المختلفة تزود بشروح  
اضافية خاصة دون ان تكشف عين الرقيب من سرها شيئا ..  
وكم كان ذلك يشد أعصاب الرفاق في اول عهدنا .. لقد  
كان هراج طبيب المهاجع ، وصيدلانا ، وزسولها معا .. ولكن هذا  
لم يكن يمنع الخطر او يؤخر الحذر .. وكانت المنظمة بالتالي تتبع  
تكتيكا خاصا .. فمن المؤكد ان السلطة كانت تفترض امكانية  
الاتصال بنا ، على الرغم من الحجز الدقيق .. وكانت تشير بوسيلة  
او اخرى مراسلات موهومة وأخبارا موجهة ، كما كان يوم اختفت  
سربوهي او صرع جول .. وهكذا كان صمت الفترة الاخيرة -  
كصمت الفترات السابقة - متعمدا ، على الرغم من الآثار التي  
يتركها والتسيب الذي ينتج عنه .



ابتدا الاجتماع في الساعة الثالثة تماما ، وكلف ثلاثة رفاق  
بمراقبة النوافذ العليا ، وكوة الباب . اخرج كنان ماسورة بنية  
صغيرة كبكرة الخيطان الدقيقة الملونة ، وأخذ يحلها بحلر شديد،  
بينما اشرابت جميع الاعناق اليه كنت خارج السجن اطالع جريدة  
المنظمة السرية على ورق تبني ، وفي حجوم عادية غالبا .. اما  
الجريدة - الماسورة فلم اكن قد شاهدها من قبل .. لقد أخذ  
طولها يمتد ، حتى قارب نصف المتر ، وكشف الخيوط الاولى  
سترها .. وانفتح العرض ثلاث مرات ، فاذا بصحيفة متوسطة ،

مفروزة بكتابة ابرية ، ولون خاص .

استعان كنان بأبي الفوز ، وساد الانصات والاهتمام .. « مع المناضلين الجزائريين داخل سجونهم .. اضراب ثلاثة الاف معتقل عن الطعام - ما معنى الجريدة الداخلية في سجون الرفاق الخاصة؟ - المعركة بين الجماهير ومنظمتها ، وبين النظام المتوردي تتصاعد يوما اثر يوم .. - النظرية الى جانب الممارسة .

الى الذين يضعون النظرية فوق الرف بدعوى الانصراف الكامل الى الممارسة .. »

وادركت لماذا اختار كنان هذا الموعد المبكر .. لقد كنا في حاجة الى الوقت كله ... واستغرقنا الفيض الذي تفجرت عنه تلك المأسورة الصغيرة ..

أعقبت قراءة العناوين همهمة خفيفة ، قطعها كنان باعلان خطة الاجتماع .

- سأتلو الفقرة الاولى عن اضراب رفاقنا في الجزائر ، ثم تبدا المناقشة ..

لم يكن النص طويلا .. كانت الاشارة الرئيسية فيه الى العسف الاستعماري ، والتحدي النضالي ، وقد ربط ذلك كله بما تحياه هنا .. ولم يكده كنان ان يلفظ الجملة الاخيرة حتى اندفع سيف رافعا ذراعه .

- اقترح ايها الرفاق ان نضرب نحن ايضا في هذا السجن تضامنا مع رفاقنا الجزائريين ..

طالب رفيق اخر الكلام فتحمس لاقتراح سيف ، ثم دعا كنان الى دراسة الموضوع ، وكان اول المتكلمين من بعد ابو الفوز . قال: - سننظم سادة السجن والسلطة باكملها لطمة قاسية ان نحن فعلنا ... تصوروا اننا ونحن في داخل سجونهم نعرف ما يجري في الجزائر ، وفي باريس ، ونضرب عن الطعام من اجل رفاقنا



المناضلين هناك .. أنهم يتخيلون اننا قبرنا الى الابد ..

قال هراج .

— سيؤكد الاضراب معنوياتنا الهائلة .. بل اننا سنشد بذلك

المنظمة كلها ..

وقال ياسر :

— ماذا سيقول آباؤنا وامهاتنا واصدقائنا يوم يسمعون عنا

هذا كله .. يجب ان يصل خبر الاضراب الى كل الناس .. انه

سيفجر دويا هائلا ..

وبدا لوهلة ان كل من في المجمع يريد الاضراب بقوة .. حتى

جاء صوت عزت متباطئا ، ويكاد لا يسمع .

— لست اريد ان صحة جميع الرفاق ستتحمل ذلك ...

قاطعهم سيف :

— هم يضربون حتى تتحقق مطالبهم ولو امتد ذلك بهم

دهرا .. اما نحن فسنضرب يوما واحدا تضامنا معهم ، وتقريبا

للمتحكمين هنا ..

تابع عزت بلهجته نفسها :

— أعلم يا رفيق سيف .. لا تفرنك قدرتنا البادية على الكلام

او المشي .. انت تذكر الانهيارات الفجائية التي كادت ان تقضي

على نصفنا لولا اسعافات الرفيق هراج .. هل سينقلون مثلا من

يقبله ألوهن يوم الاضراب الى مستوصفهم ...؟ اكاد اجزم أنهم

سيتركونه يموت امام أعيننا ان نحن فعلنا ... انظر الى الرفيق

كامل ... وتطلعنا جميعا الى حيث اشارت اصبعه التي كانت

ترتجف رجفات قصيرة وسريعة ، لا تكاد ترى .. ان كامل قد اخذ

يدوي منذ اليوم الذي لم يزره فيه أحد .. لم تنفع معه عقاقير

هراج ، ولا تقوط الفيتامينات التي تحفظها حقيبته احتياطاً ..

وكانت ادارة السجن لا تسعف الا في حالة التردى النهائي .. تابع عزت ، وقد تحمس :

— الا يلزم أن نفكر بردهم ايضا .. ؟

اعقب صمت قصير ، ولكن كان جليا تماما انه صمت مشحون .. قطعه اخيرا ابو الفوز مغندا شكوك عزت ومؤكدا الاضراب ، وقد بدأ وهو يتكلم كمن يشاجر ، فلم ينتظر انتهاء كلامه ، اذ قاطع بلطف باد :

— أن الاجتماع يفرض الاضراب .. وستحدد اللجنة موعدا قريبا ، اما ما طرحه الرفيق عزت فسنأخذ به جميعا .. سنحتاج لصحة بعض الرفاق وسنحسب لردودهم المنتظرة حسابها .. والآن لننتقل الى موضوع الجريدة .. اطرق عزت ، واطرق ابو الفوز بعد هنيهة .. وراح يحك صدغه وقد بدا انه يبجد نفسه في التفكير ، وكسا الشحوب وجه عزت ، وبدأ ان انفعالا خاصا يرين على آخرين .. الا ان حديث كنان لم يلبث ان شد جميع العيون اليه .. قال :

— لقد رأيتم كم كان من المستحيل ان ندخل قلما أو ورقة او كتابا ..

رفع سيف يده وقال متعجلا :

— احسب ان تهريب بعض اللوازم قد صار ممكنا اثناء تبادل الهدايا والزيارات المقبلة ... قلت : سيكون علينا ان ننتظر إذن ..

قال ياسر : لو استطعنا ان نعرف امكانيات رفاقنا في المهاجع الأخرى .. رفع ابو الفوز رأسه ونطق بهدوء :

— لا بد ان تكون المبادرة الأولى من هنا .. وأشار باصبعه الى ارض الاجتماع .. اكدت بعض الرؤوس أيمانها بذلك الا ان جميع العيون كانت تسأله « كيف ؟ ادار أبو الفوز ناظريه في وجوهنا ثم قال :

- لن نرمي بعد اليوم علبه سجائر فارغة ، والورق الملصوق على بعض المجلات سنحفظه ، اما باطن علب الادوية يا رفيق هراج فسيكون هاما جدا .. لن ننتظر فرص الزيارات المقبلة .. لا بد انهم سيشتددون علينا بعد الاضراب .. يجب ألا نتفاهل بامكانية التهريب كثيرا .. كل اعواد الكبريت التي تشعل تطفأ سريعا ، تطفأ سريعا ، ثم تستعمل في الكتابة . كل عود بكلمة ، او كلمتين . ونستطيع في غضون يومين ان نخرج جريدة من مئتي كلمة على الأقل .. ماذا تقولون ايها الرفاق ..؟ تعالى التهليل لابي ألفوز اكثر مما كان في ذلك الصباح الذي شهد اختراعه الاول « راديو المهجع » .. وبدأت التجربة طريفة .. راقى الجميع .. حتى عزت رفع رأسه لأول مرة ، وكاد ان يبتسم .. وكان نور الشمس قد انسحب من المهجع انسحابا كاملا أما اللبنة فلم تشعل بعد .. وتلك هي علامة العشاء المبكر .. فطن اليها حارس الباب وهو ينبه الى خطئها تقترب ، ويشير الى مفتاح الباب قبل ان تصل قرعته .. فاخفتت سريعا آثار الاجتماع ، بينما كانت سعادة حقيقية ، رغم السجن ، والخشية ، تتراقص في العيون ، وتنتظر أن يكمل الاجتماع في وقت قريب .. »

- ٦ -

رفض كنان ان يتناول افطاره .. ولحق به ابو الفوز ، وكان الى يمينه ، ثم تلا سيف وباسر وكامل وجاء دوري .. وانبهت المشرفون على الافطار .. ما شأن هؤلاء المجانين ؟ ماذا اصاب عقولهم .. كان من المعتاد ان يمتنع سجين او اكثر عن وجبة ما ، وكان في هذا ما يعني وجبة الشرطي ويسمنها .. لكن الجميع يرفضون ان يتناولوا زقومهم هذا الصباح .. ؟؟ امر المسؤول الموزعين بالتوقف في منتصف العد .. وادار عينيه

بغیظ وحنق هائلین ، ثم سأل وهو یلفظ من شفثیه بسخریة تکاد ان تتفجر :

— ما الخبر یا حضرات ... ؟

اعلن کنان باسمنا جميعا الاضراب .. کان صوته جهوریا مؤثراً ..

— لا حاجة لان تتكلفوا فی وجبات هذا الیوم .. ولا تكلفونا . ما نرجوه فقط هو ان تنقلوا خبرنا الى الرؤساء ..

رکبت البلاهة المسؤول وعناصره .. ولم یبد علیهم انهم فهموا کلمة واحدة مما قال کنان .. ( تجوعون من اجل مساجین فی آخر الدنیا .. ؟ انه لجنون طریف حقاً .. وما شأنکم انتم بذلك .. ؟ الا یکنیکم هذا القبر .. ؟ )

واصدر المسؤول امراً نهائیا — کما سماه — بتناول الطعام فاعترض کنان :

— الا یكون من الافضل ان تتجنب اثاره المتاعب .. ؟ اننا سنضرب کما یحلو لنا .. أرجو ان تفکر فی الامر ، وان تنقله الى الرؤساء ..

سرت همهمة .. وتلفت الموزعون حولهم وتبادلوا مع رؤسهم نظرات حائرة .. وطال ذلك ، حتی استبد الترقب بنا ، ثم رأیناهم جميعا ینسحبون بمذلة واضحة ، لم ینفع فی اخفائها الوعيد المصطنع فی کل حركة وخطوة ..

وراحت التخمينات تنطلق حول ما سیکون فی الدقائق المقبلة .. ولما تکاثرت الدقائق دون ان تسفر عن شيء انصرف عدد منا الى بعض الشؤون . واخذ الاضطراب یهدأ رويداً رويداً .. حتی استطعنا ان نبأشر یوماً عادیا بعد قليل .. یوماً کباقي الايام — سوى اننا نجوع فيه بمحض اختیارنا .. وقد کنا فی الماضي نقسر علی الجوع قسراً ..

امتلكنا الاحساس بالحربة ، ونحن تقطع دقائق النهار واحدة  
فواحدة .. انه نهارنا .. ونحن نحيا فيه على هوانا .. وكنت اقرا  
في عيني سيف بريقا خاصا .. اليس هو الذي اقترح الاضراب ..  
انه يتوهج اعتزازا .. اسر لي وقد كنا متربعين الى جانب عزت  
الذي راح يرفو سروالا مهترنا :

- في نيسان الماضي اقترحت على الرفاق ان نحتفل بعيد  
العمال .. كان بيننا وبين العيد ستة ايام فقط .. وقد وافقوا  
مثلما رايت منذ يومين .. وفي العيد شربنا من نبيذ عزت ..  
التفت عزت فور ما لفظ سيف اسمه .. ويبدو انه لم يسمع  
سواه من همسنا .. فقد لعننا وهو يستفسر :

- ماذا قلتما ؟

ظننت وانا اسمع بنبيذ عزت انه كان يهرب المشروب الى  
داخل المجمع .. ولكن الامر بدأ لي مستحيلا ، فسالت سيف ،  
دون ان يفكر احدنا بالرد على استفسار عزت :

- من اين خلق النبيذ ؟

كان صوتي مسموعا هذه المرة ، فقد حلق بي عزت لحظة ،  
ولكنه يتكلم ، بل اخذ يدعك القسم الذي خاطه من السروال .  
قال سيف وهو يتجه اليه :

- احك يا عزت .. ألم تفهم ؟

ضربت على فخذ عزت وقلت :

- خبر النبيذ ؟

فتوقفت يداه برهة ، ثم قال دون ان يرفع راسه الينا :  
- كل ما في الامر انني كنت قد خزننت في علبتين كبيرتين  
من عاب المرعى حصة بعض الرفاق في احدى الوجبات من العنب ..  
كان عنبا قذرا رديئا ولم يقبلوه .. وكنا نتسلى .. وبعد اربعين  
يوما اذا بنبيذ حقيقي .. قصدت تسلية اخرى .. لن نشرب فسي

السجن غير النبيذ المعتق .. ستكون لنا أفراحنا ونبيذنا ..  
ووافقوا على تعتيق علبة واحدة فقط .. وكان الشرطة يسألون  
دائما عن رائحة خاصة في المهجع .. رائحة خل .. فأحدثهم عن  
المرحاض وادوية هراج والعفن .. وسكت بعد ان بلغ ريقه فقلت:  
— حتى جاء الأول من أيار فأدرتم الكؤوس ..؟  
ضحك سيف وقال متحسرا:

— لم يكن نصيب الواحد منا يتجاوز بلعتين ..  
ترحم عزت على الأيام التي كان يعب فيها نبيذه الخاص حتى  
يرتوي .. وقال أنه كان يصنعه في الكرم بيديه .. وكان ملاكنا  
صغيرا في أطراف الجبل ، وله كرم كبير .. وبينما كان ريقنا  
يتحلب لروايته ، انفتح باب المهجع بغلطة ، وتقدم رئيس السجن  
يخبط ، يتبعه هدد من الرجال، اصطفوا على موازاة الجدار الغربي،  
واخذ هو يدور في باحة المهجع الدنيا ، مقلبا نظره في وجوهنا ،  
وكنا قد وقفنا جميعا ، حتى أنهى الى قرب كنان ، وكان فوق  
الدكة ، أمر مستفزا :  
انزل الى هنا .

نفذ كنان الامر نشطا ، ووقف قريبا من الرئيس الذي قال:  
— وصلني أنك قلت كلاما خطيرا هذا الصباح .. اسمعني  
ما عندك ..

اعلن كنان الاضراب ثانية ، ودب صوته النقي الواثق فينا  
حماسة .. رد رئيس السجن :

— هذا السلوك المشين في نظرنا تمرد .. خروج على قوانين  
السجن المقدسة .. وانتم جيعا — ولفنا بذراعه — تعرفون عقوبة  
المتنرد والخارج .. اذا كان جنوتكم في الشارع قد أوصلكم الي ،  
فان جنوتكم هنا سيوصلكم الى جهنم ..

ودفع بكنان امامه آمرا اقرب رجاله الى الباب :

— قدّه الى مكتبي ..

ثم اسمعنا باناة :

— ستلقى اعتبارا. من هذا اليوم كافة التسهيلات التي سمحنا بها في الفترة الآخرة .. والتي كنا ننوي ان نسمح بها في المستقبل القريب .. لقد كنت على وشك ان اسمح لكم بساعة للتنفّس والحركة في الباحة الخارجية بعد اسبوع .. لكنكم اثبتتم انكم لا تفهمون الا بلغة هذا ..

واشار الى يوطه وغادرنا ..

قال عزت :

— لا زيارات بعد اليوم .. اطمئنا ..

علق ياسر مستخفا :

— لقد تعودنا ..

قال ابو الفوز غاضبا ، وقد ارتفع صوته :

— سنقيم السجن ونقعده ان اصابوا كنان بأذى ..

سمعت صوتا يقول ، لم أميز صاحبه :

— ستعودون الى السوايل قريبا بعون الله ..

رد ابو الفوز بعنف :

— الى جهنم يا سيدي .. أنهم اعجز من ذبابة ..

همس عزت لي ولسيف ، وهو يتحسّس جلده :

— سيكون الامر صعبا في البداية .. لقد انقضت فترة طويلة

على سكوتهم ..

قلت : كما هي العادة .. الوجبة الاولى عسيرة الهضم ..

وضحكت وضحك سيف ، اما هو فتابع :

— أرايت الى كل الذين استدعوهم عشية يوم الزيارات ... ؟

بالله عليك كيف عادوا .. ؟ على الرغم من أنهم أمتروا أن العملية

كانت أقرب الى المداعبة اذا ما وازنتها بالماضي ..

لم يكن قد آنقضى وقت طويل على ذلك كله ، مما جعل  
دهشتنا عظيمة ، ونحن نسمع صوت الفتح ، ثم نرى ثمان في  
فرجة الباب يتحسس اليته ، وقد بدأ خذه مكموذا من بعيد ..  
هفونا اليه جميعا ، ونهض الجالسون والمستلقون ، وتلقفنا كل كلمة  
نطق بها وهو يسير الى مكانه » .

— ليسوا جادين في مواجهة الاضراب .. يجربون التهديد ..  
وقد يعيدون الكرة بما هو اقسى .. اطمئنا .. سننجح .. مددت  
اظافري الى جلد عزت ، وقلت وأنا احك له :  
— اطمئن ..

وعلا ضحكك ، حتى ضجت في سماء المهجع قهقهة .. ليس  
من ناحيتنا وحسب .. وضاعت لعنات عزت وسط ذلك .. » .

## - ٧ -

« ما كاد ابو الفوز ان ينهي عبارته الاخيرة ، حتى ضج المهجع  
بضحك صاخب هز الاوصال .. كان يقول ان السلطة قد قبضت  
في بداية الحملة الاولى التي شنتها ضدنا على ثلاثة من مهربي  
الاغنام الى اسرائيل عبر تركيا والعراق .. كان ذلك منذ عدة  
سنوات ..

ولم يكن السجن قد افرد بعد لنا . فزجوا المهربين معنا ،  
وصرنا نجلد سوية ، واختلط الامر عليهم وعلى ادارة السجن  
والمحققين كانوا يقولون لهم اعترفوا فيرفضون الاعتراف فينهالون  
فوق رؤوسهم .. وأخيرا قالوا لهم : ان وقعتم على صك الانسحاب  
اطلقنا سراحكم ، فهرعوا للتوقيع .. وافلتوا .. وكادت ان تكون  
فضيحة في السجن والسلطة والبلد يومذاك ..

كان ابو الفوز علامة في تاريخ السجن .. روى لنا حكاية  
بنائه .. واخبار الذين نزلوه قبلنا .. لقد كان الورقة الاخيرة في



يد السلطة ضد كل خارج .. عسكريا كان ام مدنيا .. كان يجتمع فيه المهزبون والجواسيس والقتلة الخطرون .. وكانت المنظمة تظن انها لا تريد سجوناً أكثر رهبة للخارجين ، بل تسعى من اجل ان تدفن النظام الذي ينتج هؤلاء .. ومن اجل ان ترفع راية اليوم الذي يقوم فيه مجتمع الأسوياء ومنذ ان شرعت المنظمة تسير على درب التغيير اخذ السجن يستقبل رفاقنا ، ويوما بعد يوم صارت السلطة تطلق اسراها المختلفين وتتفرغ لنا .. ورحنا نسمع بالسجون التي اخلت من نزلاتها وافردت للرفاق .. وكان ابو الفوز يلون كل خبر عن تاريخ السجن باحدى نكاته الوافرة على الدوام .

اذن الهدوء الذي اعقب كلام ابي الفوز وضعكنا ببدا الاجتماع ..

لقد شهد المجمع في الاونة الاخيرة مداً هائلاً .. صار كل نهار يطلع علينا بجديد .. انتهى الاضراب فبدأت الجريدة الداخلية ويوم الفصل الاسبوعي انتقلت من مخرجنا الى المجمع رقم ( ٢ - ٢ ) ، وكان اعتزازنا كبيرا اذ سبقنا المجمع الاخرى .. وعوفي الرفيق كامل تماما .. وكان ابو الفوز ينشط من اجل اختراع جديد .. وقد وعد ان يقدمه في اجتماع اليوم ..

لم يكن فينا من يجادل في صدق وعده .. وقد كثرت تكهناتنا .. لقد يسر ابو الفوز للمجمع الراديو والجريدة فماذا تراه يخبر؟ وهكذا كان صوته اول الاصوات عندما وصل كنان بالاجتماع الى بند المناقشات والاقتراحات .. قال وقد راح محياه يكتسي بجدية مهيبة منذ الكلمة الاولى ..

ايها الرفاق .. المشروع هذه المرة لن ينفع فيه عقلي وحدي .. ولن تنجزه يدي وحدها .. انتم هذه المرة جميعا يجب ان تكونوا معي ..

اثار تمهيدہ فضولنا ، وقد انعكست جديته في وجوهنا ...  
وانطلقت بعض الاصوات مستبشرة ..

— هه ابو الفوز ، نحن معك .. هات يا رفيق ..  
قال ابو الفوز :

— لقد قضى الاوائل منا سنوات في هذا السجن .. اما  
احدثنا — وألقت الي — فلا زال في شهوره الاولى .. ولقد عشنا  
جميعا هنا — وأشار الى ارض المهجع — وهناك — وأشار الى  
اجزاء السجن الاخرى — حياة واحدة تقاسمنا فيها الجوع  
والحرمان واللوعة والمرض والقتل والامل .. لقد انصهرت ذواتنا  
حقا في بوتقة المنظمة والقضية لكن ذلك لم يمنع ان يظل فينا مثلا  
الرفيق هراج الذي لم تنقطع عنه السجائر المفلتره عشرة ايام الى  
جانب الرفيق كامل الذي افتقد طويلا اعقاب السجائر ...  
بدا ان ابا الفوز سيخيب كل افتراضاتنا .. قال :

— صحيح ان احدنا لم يؤثر نفسه بادنئ الاشياء .. وان يكن  
قد تحمل في الحصول عليها وتكبد .. ولكن هل منع ذلك ان يكون  
عند بعضنا مثلا برتقالتان اضافيتان او قميص حقيقي في بعض  
الاحيان ، بينما يعيش آخرون على خيالات ذلك .. وصمت  
الرجل .. ثم بلع ريقه قبل ان يرفع بصره اليها ، ويصل به الى  
اقصى المجلس .

— ثم السننا نحن الذين نراهن على حياتنا من اجل ان نلغي  
الفوارق ونقبر الملكية الخاصة ؟ كيف تراءنا نرجو ذلك في الخارج ،  
ونسعى من اجله ، ولا نمارسه في مجتمعنا الخاص هنا .. بين  
هذه الجدران .. ؟

ولفتنا اشارة ذراعه مع سائر انحاء واشياء المهجع .. وكان  
صوته قد علا ، والانفعال قد ملك قسماته ..  
— ما رأيكم في ان نؤم جميع ممتلكاتنا هنا ونوحد خزيرتنا

وكل موارد ومصروفات المهجع .. ونبني خليتنا الاشتراكية في قلب السجن ..؟

خيم الوجود فوق رؤوسنا ..  
ثمة من أطرق ، ومن حك قذاله ، بينما اكتفى آخرون  
بالتحديق في وجه أبي الفوز الذي كان يطوف بنظره فوق وجوهنا  
جميعا ، وارتسمت علائم المفاجأة ، فوق كل ألحنيات .. حتى  
كنان بدا انه اجفل .. انه اختراعك الاكثر جدة يا ابا الفوز ..  
لقد وعدت وما اخلقت .. انه لا يقوم بعقلك وحده .. ولا يبدك  
وحدها .. لا بد أن تعمل اذهاننا جميعا ، ولا بد أن تتضافر  
سواعدنا ايضا ..

كانت آثاره ابي الفوز حادة ، ونافذة .. لماذا لم يفكر أحد من  
قبل حقا بتأميم السجن ؟ نحن نعيش حياة مشتركة .. ومصيرا  
واحدا .. تريد أن نخطط لذلك بانفسنا .. وان ندبره كما تقتضي  
مصلحة المهجع .. وتكره أن ترى السيجارة المفلترة في يد هراج  
بينما يتلهف كامل للعقب فلا يجده .. لا يرضيك أن ترى بين  
رفاقك وفي مجتمعهم الخاص أي تفاوت . هل يمكن ان تكون مغا  
دائما مثلما نحن هنا .. ؟ في المجتمع الخارجي تتشابك العوامل  
يا ابا الفوز .. لا نستطيع ان نطبق على أنفسنا أولا .. ما هو  
عذرنا هنا ؟

كان كنان اول المتكلمين .. وقد بدا مهموما وهو يقول :  
- أن هذا الامر يضع المصلحة الشخصية لكل منا على محك  
ماسي . انه بالاحرى يقفز بنا فوق سني التحول والتطور التي  
ستنقضي قبل ان نصل بمجتمعنا إلى الاشتراكية .. انه امر  
خطير ، وقاس .. وسيكون تجربة فذة ..  
وأعقب صمت قصير ، استأنن اثره عزت ، وقال وهو يجالذ  
انفعالات غامضة مستعينا باشارة خفيفة من كفه :

— ان المسألة تحتاج الى وقت طويل .. ونقاش كثير .. ومن ناحية اخرى يتحتم علينا ألا نفعل عن ان الاساس الذي تقوم عليه ليس ثابتا .. أقصد وجودنا في السجن .. انه وجود طارئ .. عارض .. وان كررت حتى الان عدة سنوات .. وآلا فمن منكم يقول اننا سنقضي باقي عمرنا هنا ؟ ..

وتبسم وحده . كانت ابتسامة باهتة أنقلبت الى تكشيرة صغيرة عندما الفت نفسها وحيدة .. لم أفهم ما يرمي اليه الرفيق عزت . فقلت أن كلام الرفاق يتسم بالعمومية ، وهو بالتالي غامض .. وتمنيت لكل من سيتكلم أن يحدد قصده تحديدا دقيقا وجليا .. رأيت عزت من زاوية عيني اليمنى يتلفت نحوي .. وكنت انوي ان اجيب على نظرتة لكن ابا الفوز اندفع مركزا بصره فوقى :

— طلبك معقول يا رفيق وهب .. بل وضروري .. سأتكلم باللغة العملية .. كم يبلغ عددنا هنا ؟ عشرة ؟ عشرين .. يفتح صندوق مالي عام للمهجع .. ويحدد نصيب كل رفيق حسب قدرته .. أنا مثلا يأتيني كل شهر خمس وعشرون ليرة انت يأتيك ثلاثون يفرض على كل منا مبلغ محدد .. أو يفرض المبلغ كاملا .. كامل لا يأتيه بنس .. طبعا لن نستدين حتى يدفع للصندوق . وتتولى لجنة خاصة الجمع والانفاق .. هذا رأي .. قد ترون تشكيل لجنة للجمع واخرى للانفاق .. الهدايا التي ترد الى كل منا .. من الحق أن احدا لا يستأثر بها حاليا .. لكننا نريد ان يكون بها للمهجع كله نصيب مرسوم .. وبصورة منتظمة لا كيفية .. وعلى هذا المنوال ..

انفرجت أغلب الاسارير .. وبدأ جليا أن الفكرة قد غدت اكثر وضوحا .. واخذت المناقشات تتوضح والاقتراحات تتألى .. وتشكلت اللجنة الاقتصادية للمهجع برئاسة أبي الفوز .. وصار

في المجمع لجمتان .. اللجنة السياسية ويرأسها الرفيق كنان ،  
واللجنة الجديدة .. وتقرر أن تخصص نسبة من ميزانية كل شهر  
لصندوق المنظمة العام . وان تدرس لجنتنا المجمع أوضاع الرفاق  
المالية ، وتتصل بكل منهم ، كي يتحدد نصيبه في الصندوق ، بعد  
ان استبعدت مؤقتا فكرة تحويل كل ما يرد للرفيق ، وسرى دم  
جديد في العروق .. ودبت حرارة تقية .. وكان الاجتماع قد بدأ  
مبكرا ، أكثر من كل الاجتماعات السابقة ( عقب الافطار بقليل ) ،  
ومع ذلك فان موعد الغداء كان قد أزف عندما اضطررنا ألى  
التوقف .. » .

## - ٨ -

« افقت على سيف يلعن ويجدف وهو يضرب ذراعه في  
الهواء .. وقبل ان اساله عما به رأيت عزت ، وكان في الناحية  
الآخري ، يتقيأ بحدة ويتلوى .. وقد أصاب الرذاذ وسادة سيف  
وأحسست به فوق شعري ..  
استويت في جلستي ، واذا بسيف يتوقف لحظة ، ثم  
يلتفت ألى :

— هذه هي المرة الثالثة .. هل رأيت هذا المساء .. ؟  
حدقت في وجه عزت .. كان قد شحب وهزل على نحو  
مريع .. قلت لسيف :

— متى بدأ ..  
أخذ سيف يد عزت وهو يجيبني :  
— الآن قبل ان تنهض بقليل .. لقد غمر ذراعي ووستادتي ..  
عزت عزت .. وراح يهز يد عزت تارة ، ويجس نبضها تارة أخرى

وهو ينده .. لكن عزت ظل صامتا .. وكان ضجيجنا قد ايقظ  
عددا من الرفاق في نواحي مختلفة من المهجع .. وأطلق تذرهم ..  
ثم اذا بعزت ينطلق بقذفة رابعة فاقت حدة سالفاتها .. وكاد ان  
يستوي ظهره لها .. وما ان انتهت حتى علا أنيته .. وراح يضغط  
بجنون على أمعائه .. وأخذت الاسئلة تنهال علينا :

— من هذا .. ما به .. ماذا عندكم ؟ ..

كان نور الفجر المتسلل من النوافذ العليا ضعيفا .. وكنا  
جميعا نعلم ان الحركة في المهجع ممنوعة في مثل هذا الوقت ..  
ولكن أمر عزت تضاعف .. وربكنا ألهم .. ..

عدا سيف نحو هراج ، فألفاه مستيقظا .. وسمعتنه وأنا  
فوق عزت يطلب بعض الحبوب .. قدم هراج مهرولا .. وتمعن في  
محيا عزت .. وفي البقيء الأصفر الكريه .. ثم انطلق الى حقيبتنه  
حيث تقوم صيدلية المهجع الخاصة .. ومن هناك اصابتنا صرخته  
المروعبة .

— يا للمصيبة .. من افرغ هذه اللعبة .. ؟ من افرغها .. ؟

انهضوا جميعا ..

ونفى كل بدوره .. استيقظ الجميع وواجهوا سؤال هراج  
وصورته الهلعة في لحظات ..

— انه هو أذن .. اطلبوا له الاسعاف .. ليس عنسدي ما

ينفعه ..

وتهاوت القبضات المروعة فوق باب المهجع حتى حسبت انه  
سيتحطم لا محاولة .. واذا باصوات مغيظة تأتي من الخارج .

— ماذا هناك .. آخرس يا مجنون ..

ولم يتوقف الضرب حتى انفتح الباب ، واندفع اليها عدد من  
رجال الشرطة وهم يصوبون اسلحتهم نحو صدورنا ..

وقطع هراج الصمت المتوتر :

— عزت حاول ان ينتحر .. أنه بحاجة الى اسعاف ،  
فوري .. أنه مخطر ..

انقضت عدة ثواني قبل ان يتقدم رئيسهم بحذر شديد الى  
حيث يتمدد الرفيق عزت .. قلبه اولا بطرف بوطه .. ثم وقعت  
عيناه على القيء الذي ملأ المكان .. فتقزز ، ولبت برهة يمسط  
شفتيه ويضغطهما . ثم مد يده ، ولكنه ارتد مجفلا فور ما لامس  
معصم عزت الذي اخذ يرتجف ، وقلب بصره فينا مليا ، ثم أمر  
وهو يعود الى رجاله :

— ليلزم كل منكم مكانه .. سنطلب الاسعاف فورا . لا اريد  
ضجيجا ولا جنونا .. عودوا الى نومكم حتى يحين موعد النهوض ..



ولكن ماذا تجدي الاوامر الغبية ؟ .. ومن سيهدأ او ينام ؟ ..  
غطى التقطيب كل الوجوه وتفضضت جباهنا ، وزفرت الصدور  
هما .. وكان بؤسا مفاجئا قد حل ..  
لماذا فعل عزت ؟ ..

كان السؤال يدوي في رأسي وأنا منهمك مع سيف واخرين  
في ازالة اثار القيء ، بعد ان نقلوه الى مستوصف السجن ..  
وكان الشك في سلامته كبيرا .. لن يجدوا في المستوصف  
احدا .. خرافة المرضى المناوب او الطبيب المناوب أنفضح سرها  
منذ زمن .. هراج يؤكد أن الاسعاف اذا لم ينجده فورا فانه لن  
ينجو .. لقد تناول جرعة فاتلة .. وافرغ علبة الحبوب بكاملها ..  
كانت العلبة لا تزال تندعك في يد هراج .. وجم الجميع .. لم  
يكن ثمة ما يقال بعد ان رجا كنان الشرطي الذي قاد نقل عزت ان  
يعود بأي خبر .. ولكن ماذا يجدي الرجاء ؟ .. ان الشرطي لم

يكلف نفسه حتى أن يهز رأسه مؤكدا أو رافضا .. لكأنه لم  
يسمع ... مسكين عزت .. ان الحق يدور ملء صدري ضده ،  
بقدر ما يتفجر الحزن .. كل المؤشرات كانت تؤكد في الاونة  
الاخيرة معنويات الرفاق العالية .. ليس في مهجعنا وحده .. بل  
ولا في هذا السجن وحده .. وكان التفاؤل يجنح بأخيلتنا الى  
انتصارات حاسمة ، وشيكة .. لماذا انتحرت عزت؟ في زمن الانبياء  
كان اصلب من في السجن .. كلهم قالوا عنه ذلك .. حتى ابو  
الفوز يعترف بأسى وجب ، ولوم .. فما الذي سبب التداعي مرة  
واحدة .. ؟

عدت الى ايام عزت الاخيرة .. وتساءلت هل كان انهياره  
مفاجئا هذا الفجر حقا ؟ ماذا كان بينه وبين ابي الفوز منذ اجتماع  
التأميم الاول ؟ وكيف وقفنا منه جميعا بلا استثناء اثر ذلك ؟ اليس  
ابو الفوز - ونحن من ورائه - من دفع عزت الى هذه الهاوية ؟ لقد  
هاض وحده مشروع التأميم ، فثارت ثائرة ابي الفوز ضده ..  
( أنت ملاك صغير وسيكون من العسير ان تنسى ذلك بعد مئة  
عام .. ) لقد بهتنا جميعا لثورة ابي الفوز وعنفه .. وكأنما  
اطبق على عزت .. خرس الرجل .. عجز لسانه عن ان يتحرك ..  
حتى يده ناست قليلا ، ثم صمتت .. اليس من المحتمل أنه كان  
بيننا من سيقف مع عزت بشكل او باخر ، لولا خشية الفضيحة  
ولسان ابي الفوز ؟

لقد اغلظ كنان من بعد في الرد على ابي الفوز .. والزم  
الرفيقين بالمصالحة امانا . لكن كلا منا كان يدرك في قرارته ان  
جرح عزت ليس بالهين .. وانه جرح اليم .. ولم يتبادل من بعد  
مع ابي الفوز حتى تحية الصباح .. ولكننا كنا واثقين ان ذلك  
سينتهي بصورة طبيعية .. حتى جاء دور عزت في المثل امام  
اللجنة الاقتصادية التي راحت تقدر مساهمة كل رفيق في صندوق



المهجع .. قال أبو الفوز لعزت أنك تنكسر الرقم الحقيقي ..  
واستشهد بنفسه وباخرين .. كنت تقول لنا انهم يرسلون لك  
ستين ليرة على الأقل كل شهر وها انت لا تذكر غير أربعين ..  
وكان شجار اخر بين الرفيقين .. وطلبت مع سيف أن تتدخل  
اللجنة السياسية وتحسم الامر .. لكن كنان اكتفى بالتدخل  
الشخصي .. وفي الصباح التالي وصلت الى عزت علية متوسطة  
من الكرتون وكان عليه ، حسب التنظيم الجديد ، أن يقدمها بتمامها  
وكمالها الى اللجنة الاقتصادية .. لكن أبا الفوز اتهمه باخفاء قسم  
منها .. وانفجر الموقف مرة ثالثة .. وقست الملائسة بينهما ..  
وطلب أبو الفوز التحقيق الفوري .. وعندما فضحت حقيبة عزت  
الحقيقة المرة ، سكت الرجلان ، الا ان عزت كان مسحوقا تماما ..  
لقد بكى وهو يقول ان أبا الفوز يستغزه دائما ، ويحاول ان يهينه  
في كل مناسبة ولا يفتأ يتشكك فيه .. واعترف أنه لم يقدم على  
ذلك الا تحديا لابي الفوز . وثار في وجهنا جميعا .. واتهمنا  
بمبالاة ابي الفوز ضده . وراح ينطوي على نفسه منذ ذلك اليوم ..  
ولم يحاول أي منا ان يمد يده اليه جادا .. بل ان بعض العميون  
كانت لا ترحمه .. لقد كان متهما على كل حال امامنا جميعا ..  
كما أن حساسيته زادت حدة لادنى الاشياء .. اما أبو الفوز ، فقد  
تجاوز ذلك كله سريعا .. الا انني ظلمت احتفظ في سري باعتقاد  
خاص في انه مخطيء هو الآخر .. وقد ألح عليّ هذا الاعتقاد  
اليوم .. واكاد أجزم أنني لن استمريكمه ان وقع لعزت مكروه ..  
ان مطرقة قاسية يتناوب وجهها صلفي . اأيمكن امام أبي الفوز  
غير تلك الدروب ؟ ألم يكن امام عزت غير تلك الدروب ؟ السننا  
جميعا مسؤولين عما جرى ..؟

وكننت أسأل ايضا أن كان من حق عزت في كل الاحوال ان  
يفعل بنفسه ما فعل ؟ اأيمكن الامر قد صعب عليه الى هذا الحد ؟

وكيف ستقف المنظمة منه أن نجا .. ؟ بل كيف ستقف  
المنظمة من الأمر بكامله ؟ اليس كنان مسؤولا أيضا .. ؟ لقد أقرر  
مؤتمر العام الماضي بالاجماع أدانة أية محاولة من هذا القبيل مهما  
كانت المبررات .. داخل السجن أو خارجها .. وقال أنه ليس  
للفريق أن يهون إلى هذا الدرك ..

وأحسست أن رأسي يتمدد تحت ضغط داخلي ، حتى  
حسبت أن طبلا عليظا يقرع فوق كتفي .. وكنت قد امتنعت منذ  
البداية عن الكلام .. ويبدو أنني قد امتنعت عن السماع أيضا ..  
فقد كانت الكلمة الوحيدة التي عبرت أذني طوال ذلك كله هي  
إشارة الياس ، وكان إلى جانب الباب ..

— أنهم آتون ..

كانت الشمس قد رسمت مربعات صغيرة وكثيرة قبالة  
النوافذ ، وكانت ظلال الشبك الحديدي في كل نافذة تحد  
المربعات ، وكان وقت الإفطار قد انقضى منذ برهة كما فهمت من  
ساعتي وأنا انتظر أن يفتح الباب وقد طالت معالجته .. كان  
رئيس السجن نفسه ، وكانت خلفه ثلة ..

قال وألشر يقرن حاجبيه ويفجر عينيه :

— لقد بطرتم حقا .. كاليفال حين تملف ولا تشتغل .. لن  
تدخل لك يا هراج حبة أسبرين واحدة بعد اليوم .. حتى لو مت  
انت أو مات من في الهجوم من أجلها .. هذا أولا .. وعزت أنقل  
ثانيا .. أما البقية ( وثأني طويلا قبل أن يتابع ) فسأريكم أياها  
بنفسي بدأ من هذه اللحظة .. هيا أخرجوا أمامي واحدا واحدا ،  
وأشار إلى رجاله ، فهرعوا صوبنا ، وكانت خيزراناتهم وأسلحتهم  
ملء أيديهم ، وشرعوا يخطون في كل مكان ، وفوق كل شيء .  
كيفما اتفق .. بينما كنا نتسابق نحو الأبواب ... » .

جزء من

الفصل الرابع



أبلغ وهب منذ الضحى بالاستعداد للرحيل بعد قليل .. وقد ضحك عندما أدار ناقل الامر ظهره وأنصرف .. ماذا لديه حتى يستعد ؟ أجال عينيه في بياض الغرفة والأسرة ، وقاوم احساسا خفيا بالاسى أو شك أن يستولي عليه .. لقد عوفي تماما .. وأمس حسدته الممرضة على صحته وهي تنتزع آخر الضمادات والاقمطة .. مدّ أصابعه ، وأخذ يداعب اثار الدمامل الزائلة تحت ابطيه ، ثم نزل الى باطن فخذيه .. لقد كان الامر فظيما حقا . فبين ومضة عين واخرى تفجر جلده .. وراحت تغزو انحاء جسمه المختلفة بقع حمراء صغيرة ، ما لبثت ان انتفخت وانقلبت نتؤات تشتهي الحك بجنون كأنها بذور الجرب .. كان ذلك منذ شهر تقريبا .. ولم تنفع نصائح هراج .. أما الحقية الصيدلية فقد أفلست منذ يوم عزت .. ولم يكن وهب يحسب أن الامر سيتطور على هذا النحو .. فقد ظل يرجو أن يبلّ ، في غضون

ايام قليلة ، على الرغم من تحذيرات هراج ، ومن ايمانه بالعلم والطب .. ولكنه اضطر اخيراً ان يطلب الاحالة الى المستوصف .. وكان طبيعياً في الزمن الاول الا تستجاب دعوته الرابعة .. الا ان ادارة السجن اخذت منذ يوم عزت تجيب طلبات الاسعاف سريعاً .. وفي المستوصف استمع وهب ، وهو يرى بأم عينه مرضه يستفحل ، الى حكايا جديدة عن سجنه .. جعلته يوقن ان كثيراً من الاسرار ستظل منغلقة دونه حتى اليوم الاخير .

كانت الرطوبة تلسعه في المهجع ، ولكنه لم يكن يفكر في انها تتسبب له او لسواه بالروماتيزم .. وكانت الحصى الناعمة تنطحن تحت اضراسه في صحن البرغل او الرز ، ولكنه لم يكن يفكر انها ستخرش معدته او المعدة أحد رفاقه حتى القرحة .. كيف نجا عزت هنا ؟ تلك هي المعجزة التي اذهلته حتى عن دماغه .. لقد كان طبيعياً جداً ان تقوده اسعافات المستوصف الى الموت .. كما قادته هو الى تسمم الدم واستشراء المرض .. وفي ذات صباح تلقى أمراً بالاستعداد للانتقال الى المستشفى العسكري الخاص رقم ( ٣٦ ) .

متى كان ذلك ؟ تساءل وهو يستوي في السرير .. كل ما عليه ان يقوم به هو ان يخلع لباس المستشفى ويرتدي أسعاله هذا هو كل ما يمكن ان يستعد به للرحيل . لقد دخل المستشفى منذ اسبوعين كاملين .. وفي الايام الاولى كانت جميع الوجوه مقطبة .. وكان يستقرئ في ذلك حالته الصحية .. وعندما زال انطمار وانفجرت الاسارير اخذ يتمتع بالحرية التي يوفرها له المرض والمستشفى .. لم يكن يجهل ان الحراس منتشرون في كل الاجنحة ، لقد رآهم يوم دخل على الرغم من ترديه الشديد حينئذ .. ولكن احساساً خاصاً بالحرية استولى عليه هنا .. ليست المواعيد في المستشفى مثلها في السجن .. ولا الكليج

يغطي الجدران .. وعبق الممرضات يضحّ سماء الغرفة ، حتى  
العجوز منهن .. فقط لو ان رفاقه هنا .. ذلك ما تحسر عليه من  
كل ما كان بالسجن .. وضحك وهو يتأمل امنيته في ان يكون  
رفاقه في المستشفى .. ( هل اريد لهم ان يمرضوا حقاً ؟ ) .



في الساعة الحادية عشرة تقريبا ، وقف امامه رجلان  
يرتديان بزة مدنية انيقة ، أحاط بهما طبيب وممرضة ، وعان بكل  
وعيه عملية الاستلام والتسليم . ثم ارخى يديه للكلبجة وتوسط  
الرجلين وراح يتأمل وهو يفادر المستشفى الممرات  
النظيفة الطويلة . وعبّ نفسا ملء الصدر من  
الروائح المخرشة التي تفوح في كل الانحاء واحس انه يزداد تيقظا  
بفعلها .. ومَرَّ بعدد من الممرضات والموظفين ، كانوا يتوقفون قبل  
ان يوازيهم ، ويتأملونه .. ولم يكن يحس بالحرج .. ثم وصل  
اخيرا الى السيارة ، وراى الحارس يؤدي التحية لاحد مرافقيه  
الذي جلس في المقعد الامامي .



تذكر انه صعد على هذه الطريق مرتين قبل اليوم .. مرة  
الى سالول ( أبوريحة ) ومرة الى المجمع وتساءل : هذه المرة الى  
اين ؟ هل سيعيدونه الى رفاقه ؟ واغمض عينيه وهو يتمنى ذلك  
من اعماقه .. واستطاع ان يتجاوز زجاج السيارة ، حيث ضياء  
النهار يملأ الدنيا ويتغلغل في كل المسام .. أنه لا يزال قادرا على  
ان يتعرف الى الحياة والوجود .. على الرغم من كل ما مر به ..  
لم يستطيعوا ان يحدفوه .. ها هي الاشجار تحيط بالسيارة ،  
وترمي ظلها فوقها .. اما البيوت فانها تنتشر في كل مكان ..

ثمة بنايات شامخة .. أعلى من بناية شوري بكثير .. وهناك ، في  
خاصرة الجبل ، تتناثر أكواخ صغيرة تذكر بكهف الاحتياط رقم  
(١) .. يقال ان كهوفا عديدة تمتد من بطن الجبل الى تلك الاكواخ ..  
وملؤها جميعا طافرون من المدينة .. فقراء ، او من رفاقه . والناس  
ايضا رآهم ملء عينيه .. رأى الصغار والكبار .. ومرت به نساء  
كثيرات لكن واحدة منهن لم تكن نور ، ولا نجاح ، ولا أمه .. كيف  
عرف ذلك ..؟ تعنى لو انه يعرف ذوي رفاقه جميعا .. لكان  
شاهد بعضهم الان اذن .. ولكن نقل البشرى الى المهجع ..

لا زال الناس يعيشون كما كانوا قبل ان يعرف هذه الطريق ..  
بل قبل ان تبدأ رحلته .. ولكن ما أدراك أنهم لم يتغيروا ..؟ ماذا  
تفعل انت ورفاقتك اذن ؟ وماذا تفعل منظمتك ؟ هل تريد هم ان  
يبدلوا ثيابهم او يتعلموا مشية جديدة ..؟ هلا غصت خلف الحجب  
وتأملت ..؟ واكتب الى الامام عازما ان يستوقف اول من سيمر  
به ، ليتأكد من حقيقة ما احدثت الشهور والعذابات . ألا ان السيارة  
بارحت يمين الطريق العام ، ودخلت في فرع جانبي شديد  
الانحدار .. لقد اقترب السجن يا وهب .. وها انت تقطع بطن  
الجبل .. وتخلف مدينة السفح .. اقترب السجن . واقتربت  
القمة .. والمسافة المتبقية تكفيك لان تتأمل حبيبتك الاولى على  
نحو لم يتيسر منذ كنت طليقا ..

ملأ عينيه وصدره منها .. لقد احبها قبل نور .. واتسعت  
مقلته .. وهفا فؤاده ..

كنت أصبح وأمسي على مراك .. انت الان اقرب الي من  
كل المواقع التي عاينت منها في الماضي ..  
ماذا بينك وبين السجن ..؟  
ماذا بينك وبين رحلتى الثالثة الى السجن .. ؟  
السجن دونك يا قمة جبل المرام ..



وزفر مرتين .. كان الهم في الاولى .. وكان العزم في  
الثانية .. واحس برعشة تسري في اوصاله .. لقد استنقع الماء  
الراكد في اقدم مدن العالم .. نتنت الارض في السفح .. محرم  
ان نلزم القرارة زمنا آخر .. اغمض عينيه وانشد :

ان الاوكار تظفر من سفح المدينة

ومن سهلها ..

لم يبق الا ان تغادر الى فوق ..

اجل ، وما ان يكون الصعود

حتى تنتزع الاظفار ..

وتنهد الدروب ..

وتورد الايام ..

وتورد الايام ..

الغلاف بريشة الفنان

طلال المعلا

الثمان ٨ ل.ل.

